الأمين

مليكة مقدم

MALIKA MOKADDEM

مكتبة
الفكر الجديد
28-05-2017

أدين بكل شيء للنسيان

رواية

ترجمة:
السعيد بوطاجين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أدين بكل شيء للنسيان



يتضمن هذا الكتاب «دين النسيان»
ترجمة الأصل الفرنسي
JE DOIS TOUT A TON OUBLI

Cet ouvrage publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schehadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et Européennes et du Service de Coopération et d'action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والأوروبية والسفارة الفرنسية في لبنان، قسم التعاون والعمل الثقافي وذلك في إطار برنامج جورج شحاده للمساعدة على النشر.



أدين بكل شيء للنسيان

رواية

مليكة مقدم

ترجمة
السعيد بوطاجين









الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0363-4

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/ فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)



إلى كلودين صباح



أفضّل المصارعة تحت الترس ثلاث مرات،
على أن ألد مرّة واحدة.

يوريبيد: المدية



هذه الريح المسكونة

يد الأم التي تستولي على وسادة بيضاء، تغطي بها وجه الرضيع الممدد على الأرض بالقرب من الخالة زهية، وتضغط. هذه اليد التي تشدّ على المخدّة وتتمادى في الضغط. التقلّصات العضلية للولد التي تدرك بالكاد، هو الموثّق بخرق تشده من جذر اليدين إلى أخمص القدمين، صراخ زهية الصامت الذي يبدو متجمدا تماما.

ترتعد سلمى، هل هو كابوس؟ ألم تغف هي الأرق، بعد الذي عاشته في الظهيرة؟ من أين ينسل هذا الوحي الشيطاني؟ تقاوم، تستمع إلى الريح الشمالية التي تجأر في شجر السندان، تنظر إلى اللهب المضطرب في الموقد، تقف، تزيد حطبة، تتناول ويسكي، تحاول أن تهدأ، ثم تشرب منوّما فيما بعد.

تميل متنبهة على مسند أريكة، ويعود إليها في الحال إطباق الأم المزوّدة بالمخدّة البيضاء، ارتعاش الجسد الصغير الملفوف وملمح نظرة الخالة زهية. صفاء وحدّة مذهلان.

يكبر حقل المشهد. مدفأة سوداء تهرّ. الأرضية من الطين المطروق، الريح تهدّد، تخرم الباب، تسرّب الرمل من كل صدوع الألواح، إنها لاذعة.

تحملق سلمى، تنظر إلى مدخنتها المعدنية التي تشخر منسجمة مع عاصفة الليل، تسمع الريح الرملية تزأر في ريح الشمال، «الأمر خطير... هل أنا مصابة بجشاء هذياني؟» لماذا تشعر، إلى هذه الدرجة، بأنها معنية بفقدان هذه المعذبة؟ لا شك أن ظروف الموت



ثقيلة الوطء.

صورة المرأة الحية تمنحها هدوءا قصيرا. تراها سلمى بدينة سعيدة، تسمع زوجها يناديها «سمّاني»، كلمة السماني تناسبها بشكل مذهل، قالت سلمى وهي تلاحظ تأرجح رجلها على حساب الأخرى.

تمّ إيفاد المستشارة بسبب فقدان الوعي الذي حدث قبل خمسة عشر يوما، وضعت لها الطبيبة سلمى مفيد البارحة **هولتر** وجب أن تنزعه اليوم. كانت سوابقها العائلية مثيرة: مات أخوان فجأة في حدود الأربعين بشكل غامض بعيدا عن مونبلييه.

وكانت المرأة لا مبالية إلى غاية اليوم، ثم انتهى بها الأمر إلى الامتثال لإلزامات طبيبها، لكنها استبعدت مسبقا استشفاء سريعا بالنظر إلى نتائج الفحوصات الأولى.

لم يبيّن مخطط القلب الكهربائي سوى مقطع من الصدر وجزء من الشريان الأيمن، ولم يبرز تخطيط القلب ما يدعو للقلق، بيد أن تسجيل نشاط القلب خلال يوم كامل، والدورة البيولوجية ليوم وليلة أمر يفرض نفسه في هذه الحال، سيسمح هذا بالكشف عن اضطرابات الدورة، وإذا كانت عابرة فإنها تقدم تشخيصا يشغل البال.

كم كانت الطبيبة سلمى مفيد مندهشة في مطلع القيلولة عندما وجدت نفسها وجها لوجه مع الزوج، وحيدا، السحنة قاتمة، والعينان حمراوان والآلة في اليدين: «سيدتي الطبيبة،لقد توفيت زوجتي هذه الليلة، يقول طبيب المشفى، إنك بهذا يمكنك أنت أن تعرفي ما بها».

تلعثمت سلمى مفيد باندهاش: لكن، كيف؟ كيف؟ قبل أن تثّبت الآلة باندفاع. إذا كان سبب الوفاة ناتجا عن القلب فذاك صحيح، إن تفسيره ها هنا، في هذه العلبة.



لم تتأخر سلمى مفيد في أوج الألم عن إدراك أن الهولتر، الذي يهدف إلى التشخيص، يكون قد أسهم في وفاة المريضة.

استيقظ الزوج ليلا على «شخير غير طبيعي» لزوجته وتفادى رجّها وتشغيل قاطع تيار مصباح رأس السرير «بسبب آلتها، لئلا يشابك أو يبدّل نظام راحتها». وإذا كان بديهيا أن الشخير يزعجه فإنه يطمئنه في آن واحد.

كانت زوجته من الهدوء بحيث لا شيء يزعج نومها، بما في ذلك عدّة القطب الكهربائي. إنها في سبات عميق لم يحدث لها من قبل، نهض حينها الرجل وذهب إلى الصالون ليدخن سيجارة. شاهد التلفاز عشرين دقيقة تقريبا. وإذ عاد إلى الغرفة بدا له استمرار الصمت مريبا، وانتهى بإشعال الضوء، لم تكن زوجته تتنفس.

وصل طبيب المشفى متأخرا، وإذ كان الرجل ضائعا في النحيب استخرجت الطبيبة سلمى مفيد التسجيل بنوع من الحمّى، ثم شاهدته لتكتشف الدفعات المرعبة لانقباض البطين، تمّ تسجيل الوفاة. لا بدّ أنه عرض من أعراض بروغادا، إن ما اعتبره الزوج شخيرا غير طبيعي كان نفس احتضار، أكان يمكن إنقاذ المرأة لو أن الزوج انتبه في الحين؟ الاستعجال الاتفاقي في حال السكتة القلبية، إن لم يكن هناك معدّل اختلاج قريبا...

في شهقة مخنوقة أخرج الرجل نقاله، فتحه وقدّمه للطبيبة: «انظري، هذا قبل أن تغتسل، قبل قليل... في فستان زواجها». انغلقت يد مثلجة على قلب سلمى بعد مشاهدة الصورة، أحست بأنها تتفسخ، ولازمت عندئذ مكتبها وقد بهرتها الصورة: كان الفستان ضيقا يتسع من جهة الركبتين. لكن الأسفل كان ملفوفا حول الساقين ومنسدلا



على القدمين بحيث تبدو المرحومة، الملفوفة أكثر مما كانت عليه في عرسها، محزمة جيّدا، كما الرضع في خرقهم البيضاء الذين رأتهم سلمى عندما كانت صغيرة. هناك في الصحراء، فضلا عن ذلك، هذا الوجه النضر، هذا الشعر الأملس. لقد كانت المماثلة جذابة.

تحرك لهذا الاستذكار شيء مفاجئ في سلمى، لم تستطع تفسير دوارها وقد أدهشتها الصورة.

بذلت سلمى، عشية البارحة، قصارى جهدها كي لا تفقد الصبر أمام مجموع الصور الكثيرة للعائلة التي قدّمتها لها إحدى زميلاتها. لقد جعلتها وفرة الصور، تلاحظ بالتعاكس، أنه باستثناء صورتي والدها وفاروق اللذين توفيا، فإنها لا تملك أية صورة عن الأعوام العشرين التي قضتها في الجزائر. ألم يكن لها أي هدف؟ وبعد طول تفكير استطاعت سلمى أن تجد صورتين بقيتا لدى أمّها.

واحدة أثناء الطفولة، ولا بدّ أنها كانت ضرورية لاستخراج أوراق ثبوتية في وقت الحرب، والثانية أثناء تدشين ثانويتها، مباشرة بعد استقلال الجزائر، كانت سلمى في الصورة مع بن بلة الذي «هبط» إلى الصحراء بهذه المناسبة. لقد كانت ترتدي لباسا بلون الراية الجزائرية، وكانت الفتاة الوحيدة وسط الفتيان.

كفّت سلمى عن النظر إلى صور ماضي زميلتها، وحاولت عبثا الإسراع في استبدالها بوجوه من الطفولة والمراهقة. بيد أنها مظلمة وباهتة. منظر بشري غدا ملتبسا بفعل ضوء الصحراء، أو بفعل اعتراض الذكرى، وسارعت سلمى لمحو هذا الغمّ من ذاكرتها.

وإذ تخلصت من الصورة، وقع بصرها على آلة الهولتر التي على مكتبها، وبحركة مغتاظة كنستها بعيدا عن ناظرها. تبدو آلة الهمّ



هذه بصدد بث موجات جنائزية.

ثم دارت حول مكتبها وارتمت على الأريكة مركزة بصرها على النافذة، لم يرتسم سوى علو العمارة المقابلة والسماء. لا شجرة ولا نبات، ولا شيء يحيل على هبوب الريح.

اجتاحت الطبيبة سلمى مفيد قشعريرة عندما لاحظت أم المرحومة تصغرها بعشر سنين، وأن المرأة كانت تنام في بيتها منذ حادثة الإغماء دون أية رقابة، وأنها كانت تستيقظ كل صباح «مثل سحر» كما قال زوجها.

كان يكفي أن تزورها المرأة لتؤوب بمنفذ كهربائي على القلب ويأخذها موت مفاجئ أثناء النوم، لم تستطع سلمى أن تبرئ الهيئة من هذا الموت: كيف لم يتم فحص هذه المرأة قبل عقبة الأربعين، أكان ذلك مقدرا على إخوتها؟ مسألة إهمال السلك الطبّي.

مع ذلك، فإن وصلها السريع بكشف شعاعي، كان لا يكفي لإنقاذها. كانت هناك اضطرابات شديدة خلال النوم، ولم تكتشف وفاتها إلاّ صباحا، دون أن نأخذ في الحسبان كل الحيل والمغالطات التي ينتهجها الموت ليغرز شوكته في الغشاء الممرغي للحقيقة الطبية، في قلب الترسانة بالذات.

عدلت سلمى هذا المساء، وهي تغادر المشفى، عن عادة السير الطويل الذي يخلصها من أعباء النهار. كانت عيناها مشدودتين إلى السماء بحثا عن زرقة الصحراء، دون أن تعثر عليها. كانت الهوّة فوق الرمال. لم يكن ذلك حنينا، ولن تعود سلمى لتعيش في الصحراء مهما كان الأمر. أليس ذلك خوفا من رؤية رشقات الماضي تنهمر عليها؟ وإذ كان نفسها متقطعا فقد سعت إلى جمع كلّ طاقتها وذهبت



بعيدا، بعيدا جدا لاستنشاق بعض الهواء لتستريح.

بيد أن انزعاج سلمى دام طويلا، ما ألزمها الجري لتلبد في صمت البيت، وعندما وصلت أعادت إشعال النار، لقد كانت واهنة لما فرضت الرؤية نفسها فجأة.

حاولت للمرّة الأخيرة أن تتذكر نظرة المريضة المتقدة. حجبتها صورة النقال في الحال، أنها تتطابق مع صورة الرضيع في القماط، ومرّ عندئذ الفيلم الصامت مرّات: يد الأم، هجومها، قفزات الرضيع واستغاثة عينيّ زهية. سمّر التعب سلمى في مكانها. كانت يد الأم تأخذ طابع العناكب الكبيرة التي تنبئ بالريح الرملية. كان ظهورها المفاجئ، فيما مضى، على كلس الجدار، يحدث نفس الأثر في سلمى.

ماذا فعلت إذن لتنسى هذا المشهد خلال هذه السنوات قاطبة؟ بالكاد يعبرها السؤال، لقد أخذت سلمى بما خبأته، ذاك الذي يبرز فجأة بكلّ عنفه.



الموت غير المسجل

رأت سلمى نفسها هناك في الصحراء. كم كان سنها؟ ثلاث سنين ونصف؟ ليس أكثر، كانت النسوة يصرفنها. لا شيء أفضل من هذا لتأجيج فضولها، تظل هناك تطوف. الباب مفتوح وعصف الريح لم يبدأ بعد، لا يوجد في البيت سوى غرفتين تطلان على الفناء. لقد وضعت البارحة، الخالة زهية، الأخت الصغرى للأم مولودا جديدا. إنها ممدة في إحدى زوايا المطبخ والولد ينام في حضنها. انزعجت الأم من عصيان سلمى واندفعت نحوها، جرّتها بقوة نحو الغرفة الوحيدة وألقت بها إلي جانب أخويها النائمين: «احرسيهما، لا تتحركي من هنا، وإلاّ فالويل لك. هل سمعت؟» أوصدت الوالدة الباب من ورائها وذهبت.

ما إن التحقت بالمطبخ حتى هبت ريح رملية. خافت سلمى من الريح الرملية. تخنقها، تمنعها من الرؤيا، تمحو السماء، تطفئ الدنيا بصخبها، نظرت مرعوبة إلى الغبار المتدفق ما بين الباب والإطار المنفصلين، ومن بين فتحات الألواح الخشبية.

استمر الأطفال الآخرون في النوم بلا انزعاج. لن يفيدها إيقاظهم، بل بالعكس، لا يوجد أحد أكثر صخبا من المولود الجديد الذي ما زال صغيرا، إذا كان الثاني جذابا في عامه الثاني، فذاك بالمعنى الإجباري للكلمة. كم من مرة في اليوم يجيء ليتفرشخ على ظهر سلمى؟ يحيط عنقها بيده اليمنى إلى أن يقطع نفسها، وإذ يتفاجأ بعدم انطلاقها بسرعة، يوجه سبابة اليد الأخرى ويأمرها: «هيا!



هيا!» اعتاد على أن يخضع الجميع لنزواته، إلى أن أصبحت، بالنسبة إليه، قيمة نظامية.

رضيت سلمى بأوامره عدّة مرات، إنها أطول منه بقليل، وإذ تقبل بحمله عل ظهرها، فإن قدميّ الولد ترتطمان بربلتيها، إنه من الثقل بحيث ترتمي أرضا وتسير معه. يضحكان معا وقد استهوتهما اللعبة.

لم يعد تهجم الولد يعجب سلمى وقد غدا نظاميا، وإذ واجه رفضها عنّف الطاغية الصغير والدته فارضا عليها ترقيعا سريعا لجريمة القدح في الذات الملكية. «احمليه!»، زايدت الأم. إلا أن الفتاة تمردت، تركتهما هناك فجأة وفرّت.

اجتهدت سلمى من أجل أن تتشجع لمواجهة الريح. عليها أن تعود إلى المطبخ، لا يمكنها البقاء وحدها في هذا الظلام الخانق. تقوّست أمام الرشقات وأسرعت باتجاه الباب المجاور، كان هذا الأخير مغلقا بالمزلاج الداخلي. ألصقت سلمى وجهها بشرم ما بين الألواح الخشبية على أهبة مناداة الأم. لقد بهتت إذ أبصرتها تشد وسادة وتضعها على رضيع زهية، البنت الصغيرة لا تعرف شيئا عن الموت، لا تدرك مغزى هذا الفعل. لكن العنف استولى عليها مباشرة فابتعدت متراجعة، وعندما وصلت إلى الفناء أطلقت الريح لساقيها، جرت طويلا جدا والريح تدفعها قبل أن تقع أرضا، انكمشت وقتئذ وغطت وجهها بيديها.

زوابع الريح تكشط بشرتها وزمجرات الريح تملأ رأسها حد الانفجار، والغضب يصرعها. أظلم كل شيء. لم تعرف سلمى إلى أين تقودها الريح. ليست سوى شيء صغير في نفسها الأكمد. لقد



تعامت إلى درجة الانمحاء.

سلكت غريزيا الطريق الذي يأتي منه والدها الغائب عن الدار. هو الذي عثر عليه بعد أربع ساعات، متكوّمة، مغطاة بالرمل خرساء. احتضنها وأخذها إلى البيت.

سألت الأم بنظرة فاحصة: «أين كنت؟» قبل أن تعلن بصوت خفيض: «مات الرضيع». ستتذكر سلمى هذه الجملة إلى أبد الآبدين. لن تنسى ثقلها أبدا. بيد أنّ ساطورا وقع على رأسها، لم يحصل هذا. انمحى مشهد الاختناق من ذاكرتها، محاه الرمل والريح. أي جانب ضاع إذن من حياتها ومن عواطفها؟

تحرّكت سلمى، عادت إلى الحاضر وتثبتت في الإنكار ساخرة من نفسها: هذه حبكة أصابها اختلال شيخوخي من قبل، هل يمكن نسيان شناعة مماثلة مدّة خمسين سنة؟ هذا محال، محال.

نضح تفصيل متنافر من المشهد بشكل مباغت. عنصر مهمّ، الوسادة - اتهمت سلمى نفسها: «تلك التي وضعتها بين يدي الأم» - كانت مربعة ومغلفة بغطاء أبيض. «وسادة مشفى!» تلك حجة عن خرف وضعها الأرق. لم يحدث أبدا إن وجدت عند أهلها وسادات مشابهة. كانت كل وسادات الطفولة التي خاطتها الأم كربعة وفاقعة، وكان القماش يغطي مباشرة العهن المنفوش الذي يبدأ للتوّ في الندف ليصبح مرصوصا في هيئة كعكات تشوّه الحلّة وتعذب الخدين والأذنين.

لم تكتشف سلمى الوسادات البيضاء المنشاة إلاّ لاحقا، بعيدا عن الصحراء، في الفنادق والمستشفيات، ها هي ورقة الإدانة التي تفضح هلوستها: الوسادة البيضاء!



بعد هذه الحجة التي أرادتها منقذة، نهضت سلمى واثبة وذهبت لإحضار كأس من الماء البارد، ثم أخذت تستمع إلى ريح الشمال، الساعة الثالثة صباحا. وحده قبس المدخنة يضيء الإقامة. لم تشعل الضوء. كانت ليلة بلا قمر، إحدى هذه الليالي التي تأتي لتستند بكل كلكلها على الكوى الشفافة.

حاولت سلمى عبثا أن تتلهى، لقد تشابك شيء ما لا يتزعزع، شيء ما خرّ بداخلها. جرّبت، بسرعة خاطفة، إبعاد المجهول في منافذ الذعر. اتهمت نفسها بالجنون، بالخزي تجاه والدتها، وعادت إليها، بالمشابهة مع صرح النسيان، صورة مدار قطع السكر التي كان يكفي أن تنهار واحدة منها ليلحق الباقي.

تناولت سلمى ويسكي آخر لتصمد أمام هذا النوع من إعادة التمثيل الذي بلا شاهد، بلا شرطة، بلا قاض، المتأخر جدا في حياتها، في ليل الذاكرة.

أحست هذا المساء بأنها مذنبة ومسنة.



الحادث الحيوي للذاكرة

شاهدت سلمى مجددا زوج السيدة «ر» يحدّث الطبيب المعالج، من المهم القيام بتحقيق عائلي، مستقبل الأطفال مرتبط به. سيساعد هذا الهدف سلمى، يجنبها الانهيار. انهارت حياتها في ومضة واحدة للذاكرة، ستنقسم، من الآن فصاعدا، من القبل والبعد.

عذبتها في الفجر، بعد ليلة منقبضة، بلا أكل وبلا نوم، الرغبة في لقاء ڤومي أحسن أصدقائها. وحده ڤومي، الشريك الدائم، قادر على إنقاذها من هذا الصدع.

دعمتها الرغبة في الاختباء بين أحضانه والتحدث إليه، إن هي هاتفت ڤومي سيجيء سريعا. لكن سلمى تشعر بضرورة الذهاب شخصيا، كأن الأرض التي شهدت كسوف النسيان هي وحدها المؤهلة لإنقاذها. عليها أن تذهب. لقد تشبثت بهذا القرار، والحال أنها لم تحدد بعد ماذا ستفعل ها هنا.

غضّت الطرف عن كل ما يزدحم على مكتبها في المشفى هذا المساء. اتقت كل شيء لاتهم المراسلات التي تنتظر. ليس لها في هذا المساء سوى رغبة واحدة: الهرب.

لطالما أحبت المشي على شاطئ البحر غسقا، مالت الريح نحو الجنوب هذا الصباح. قرص الشمس على وجه الماء، عين حريق مرعب، الريح باردة جدا بالتعاكس، تقرص سلمى من الوجه واليدين. تستسلم للدغاتها. هناك، وهران. كم رغبت في البكاء، لكنها لا تملك شيئا، وخاصة الدموع.



شرعت في الجري، جرت وجرت، الليل تهديد يصل ويغمر السماء والبحر. تجري. تتمتم أحيانا نفس «ڤومي»، الصديق الذي في الجانب الآخر من البحر. توقفت سلمى بالقرب من أربعة صيادين بعد أن ضاق نفسها. لقد غرسوا خيوط الصنارات في الشاطئ وأسرعوا لإشعال موقد جمر.

اتجه أحدهم نحو سلمى: «امرأة وحيدة في شاطئ مهجور. الليل خطر». لم تجب سلمى. نظر إليها الرجل: «ستصابين بالبرد». وذهب للبحث عن معطف رياضي وضعه على كتفيها. تدثرت سلمى وجلست، أتاها آخر بكأس نبيذ أحمر، لم تتوقع أبدا هذا الاهتمام من ناس مجهولين.

لا يوجد قمر. البحر الآن شديد السواد والتنفس صعب، الانبجاسات البعيدة ترشه من حين إلى آخر، ثم يغرق كل شيء تحت ثقل الظلام. جاء أحدهم ليقدم لها صحن من السمك أخرج في الحين من الجمر. أكلت بالأصابع. كان لذيذا جدا. بقيت سلمى منعزلة وهي تنظر إلى هؤلاء الرجال الذين استقبلوها وأعالوها. وإنها تتذوق هناء هذه اللحظة التي تحول النداء الموجه لڤومي إلى حلم. ولأن سلمى لا تستطيع أن تحضن صديقها فقد اختبأت في الذكرى.

عندما كانا يضيقان من كارثة المطعم الجامعي وأجواء مطاعم المدينة التي تراقبها الشرطة، كان ڤومي وسلمى يذهبان لشراء السمك من المسمكة مع الأصدقاء ويسلكون طرقات الشواطئ. التقت سلمى بڤومي في اليوم الذي جاءت للتسجيل في جامعة وهران، كان ذلك في مطلع أيلول من سنة سبعين.

بعد خروجها من مكاتب كلية الطب جلست سلمى على مقعد



في الممر المحاط بالنخيل، مرهقة من قلة النوم - لم تنم البارحة، وقليلا ما نامت في الأيام السابقة - ومرهقة بفعل النشوة.

لم تصدق أنها ها هنا، هي ابنة الفقراء، هنا وحدها، لقد تخلصت من العالم السجني للصحراء، من زنزانة التقاليد. استغرقت سلمى وقتا، بعد هذا الانقلاب، لتصدق بأن فتى جميلا، كان بقربها، مأخوذا بأفكاره هو الآخر.

نظرا إلى بعضهما خلسة قبل أن تجرؤ سلمى على السؤال: «جئت لأجل التسجيل الأول؟ - بلى، حصلت للتوّ على نتائج الاستدراك، حصلت مرّة أخرى، العرس كل يوم، إنه مكلف على كل الأصعدة...».

التحق ڤومي بسلمى على المقعد، تحدثا وتحدثا، تحدثا بإسهاب من لا يخسر شيئا. كم مرّ من الوقت ليصرخ ڤومي: «إني أموت جوعا!؟».

نظر الشاب عندئذ بطرف العين إلي الحقيبة البالية الموضوعة عند قدمي سلمى: «وإلى أين تذهبين، كيف هذا؟» لم تدرك سلمى وجهتها المثيرة للسخرية إلا عندما أجابته: «أذهب عند راهبات شارع مستغانم».

انفجر ڤومي ضاحكا ونطق بعد لأي: «هنا ما يدعونا إلى أن نشنق أنفسنا ألف مرّة في اليوم في بلد المجانين هذا! سترين بنات الشخصيات اللائي يسكنَّ في الحي الجامعي. يأتي آباؤهن لأخذهن في السيارة يوم السبت مساء أو الاثنين صباحا بقفف مليئة بمأكولات أمهاتهن وبالفواكه. وأنت، المتحررة التي خرجت من الصحراء ومن لا شيء، تذهبين عند الراهبات؟ طز!» نعم، طز!



لم يحدث أن راوْدت سلمى كلمة فندق، لا توجد الفنادق، بالنسبة إليها، إلاّ في الروايات، أما عن الأسفار والرحلات فإنها ليست متعودة ولا تملك إمكانات. هدف واحد كان يستقطب إرادتها ورغبتها: الحصول على البكالوريا والهرب بعيدا عن العائلة، بعيدا عن الصحراء! الذهاب، أين الرسوّ بانتظار أن يفتح الحي الجامعي أبوابه؟ كان ذلك ثانويا. انتظرت التحليق كثيرا. اكتوت سنين بنار جهنم.

تجنبت إخبار ڤومي بأن مراقب الثانوية هو الذي قدم لها هاتف الراهبات في حزيران الماضي: «احجزي غرفة في الحال، وإلا امتلأت الغرف!».

لم تكن سلمى تعرف أي أحد في وهران، لم تطأ قدماها المدينة إطلاقا، لكنها كانت تشعر بأنها حرة، حرّة لأنها لا تعرف أي أحد، وهكذا تجرأت على الحديث مع أي فتى تلتقي به. ومن الآن فصاعدا، سيكون ڤومي صديقها في المدينة.

نهض الشاب وقرّر: «هيا معي، أدعوك إلى الغداء». وإذا اكتشفت سلمى سيارته المركونة في الممر لم تتوان عن إغاظته: «يا هذا، يا ابن الأثرياء! - نعم. لكني تخليت عن والداي ليتوقفا عن التفكير في تزويجي، لأشعر بالراحة. أنا لواطي. هل أقول لوالديّ المتخلفين، سواء كانا ثريين أم لا: لن أتزوج أبد. أنا لواطي؟».

لم تذهب سلمى عند الراهبات، آواها ڤومي أسبوعين إلى أن فتح الحي الجامعي أبوابه. أسبوعان من الزواج سيرسخان صداقتهما إلى الأبد. لقد سكنت كلمات الحب، بالنسبة إلى سلمى صوت ڤومي أوّلا.



كان يجد متعة، بضحكته الخفية ونبرته المتهجمة الدافئة في مخاطبتها بقوله: «خطيبتي»، «نذهب إلى العشاء كمحبين؟»، «يمكننا أن نتزوج ونتغلب على تلهف الوالدتين»، «أنت جميلة، أتعلمين؟».

كان لحبوره نبرات يائسة، لقد وجدت سلمى صديقا موثوقا له دون أن تبحث عنه، وستتعلم منه ومن رقته ومجاملاته كيف تتأقلم مع جسد رجل.

ذهبت سلمى لتسكن في الحي الجامعي ونسخة من مفاتيح ڤومي في جيبها. ستعامله بقسوة في عمله وتطلب منه علاماته. يفتح عينيه الواسعتين السوداوين وينفذ برصانة ودهشة: «نعم، خليلة».

لم يغير دخول فاروق، بعد شهور، في حياة سلمى أي شيء في علاقتهما، وبعد نوبات من الغيرة الشديدة، أدرك فاروق أنه سينتهي بقطيعة إن اتبع هذا المسلك. وهكذا شكلوا ثالوثا من المنحلين الذين لا يفترقون.

ماذا كان بمقدور سلمى أن تهدي، في هذا الليل المظلم على شاطئ بحر «العرض الكبير»، لتسمع صوت ڤومي يسألها: «كيف تنامين هذا المساء؟ معك».

اعتاد ڤومي وسلمى أن يندسا في السرير ذاته عندما يفتر الحب وتعْدو الوحدة جائرة أكثر من ذي قبل، يتحاضان لتبادل أسرار أو للتأسّي.

جاء الصيادون ليعرضوا على سلمى صيدا مهمّا، كان ذئبا يزن أكثر من ثلاثة كيلوغرامات. أما زالت جائعة؟ هل ترغب في كأس أخرى؟

لماذا لم تلتحق بهم؟ قالت إنها سترجع إلى البيت. كانت بحاجة



إلى قليل من الهدوء بعد يوم شاق، قالت لهم شكرا، شكرا جزيلا.

سيارتها بعيدة. رافقها أحد الرجال. «ستجديننا هنا في السراء والضراء، الصيد وافر عندما تكون هناك لفافات. أحضري قنينة نبيذ وأهلا بك».

بمجرد أن تمددت سلمى على سريرها حتى بدأت الصوّر تتزاحم في رأسها، ألأجل مقاومة شك الاحتلام العنيد؟ ألأجل التغلب نهائيا على النسيان؟ شرعت سلمى في وصف ما رأته، ما أعادت رؤيته، في التكلم باسم هذا الماضي لإعادة صوت الحق.

تحدث نفسها، تكلّمها في الظلام، تغرق في وهم فظيع: «أتذكر جدتي وهي تحاول أن تجعل الخالة زهية تبتلع شيئا ما. فهمت لاحقا أنها كانت تريد إسقاط الجنين، بكت زهية ودفعت الوعاء: «إنه شديد المرارة، لن أستطيع أبدا ابتلاع هذا. قاءت وبكت، تسكن زهية عندنا، لم تعد الزواج بعد. هل طلقها زوجها الأول في وجدة؟ أم أنها ترملت باكرا؟ يبدو الاقتراح الثاني أكثر احتمالا، زهية جميلة جدا. تقول عنها النساء الأخريات: «ستعذب خصيا». جدّي من أمي هو الذي أوكلها لوالدي، حفيده وصهره، يجب إسكانها في بلدها الأصلي، ذاك ما يريد الجميع، تزويج زهية في بلاد الأجداد حتى تستطيع إنجاب جزائريين صغارا، بعد سنة من وصولها إلى الصحراء زوجت زهية بجار من قبيلة ذوي منيع[1]. بلا زغاريد وبلا طبلة.

انتفخ بطن زهية قبلا، كم مرّ من أسبوع عندما رافقها زوجها صباحا وهو يقول: «هل هي مريضة»؟ وضعت زهية ظهرا، في البيت.

---

(1) قبيلة خمس أخماس، من القبائل العربية المهاجرة من اليمن. استوطنت بمنطقة قير ببشار، وقد ذكرها ابن خلدون في المقدمة.



أتساءل لماذا لم تؤخذ إلى المشفى، تلك أول ولادة أحضُرها، خلف الباب على كل حال. كالعادة. لكني رأيت الرضيع وهو يُسحب. حملته أمي، إنه مدبّق عن آخره، يصرخ. لماذا أنسى موت الرضيع، أقصد طريقة موته... في حين أتذكر ولادته جيّدا؟

تم الاعتقاد لاحقا بأن زهية أجهضت. سيدخل هذا الوهم في روحي نشازا دون أن أدرك أبدا مجراه. إنه الحافز الوحيد المعلن لارتيابي.

«بأي ثمن قبل هذا زوج زهية، ثمن امتلاك زوجة جميلة مقابل التضحية بحياته؟ وأي الرجلين اللذين في البيت كان والد الرضيع الذي تمّت التضحية به؟ أبي أم عمي الذي ما زال شابا؟ أصغر الأخوات الثلاث موعودة لهذا الأخير. إنها تعيش في وجدة، لم يعد هناك مجال لهذا الزواج بعد وصول زهية إلى الصحراء، مع أن حليمة مهووسة. أنا متأكدة، يثيرني في هذا لأني أجده جميلا، حبّ تفصله الحدود وينتظر ساعته. كم هو بهي عمي، مدّعي جمال ممغنط بحيوية زهية الملائمة؟ مسكينة، حليمة مسكينة المسكينات، كادت أن تبور.

ثبطت همم طالبي الزواج منذ زمان بالنظر إلى وضعها كامرأة يتعذر الاقتراب منها «لأنها مرتبطة بقسم أوليائها». هذا الثعبان العائلي، الأفكار المزعجة للخالتين لاحقا، الأمر كذلك إذن... كم من سنة مرّت، وكم من تخوفات لتتزوج حليمة في الصحراء هي الأخرى؟ إن قدر فتيات قبيلة وجدة. «يزوّجوهن في الصحراء».

«الصدف بدورها سهرت بغيرة كي لا ينضب رأسمال الضغينة



العائلية: تزوجت حليمة أخيرا وسكنت قرب دار هذا العم. جيسون[1]، هو العمّ إذن، كم خفت أن يكون والدي، مع أن ذلك كان يبدو لي غير مقبول في آن واحد!هذه الطريقة المتعبة دائما للإفلات من النذالة، طبعا، كان بمقدوره أن يفعلها... لكن وسادة من هذا النوع، لم يحدث أن امتلكناها... أي استيهام أكون لعبة له».

مرّ صمت طويل بقيت فيه سلمى متجمدة، تنهدت وقالت: «كيف لم أفكر في هذا؟ كان كفنا. لفت الوسادة، كان يكفي فيما بعد سحب المخدة وترك القماش على الجسد الصغير لتفادي رؤية الموت. كانت جريمة القتل متعمدة، كل شيء كان جاهزا. تمّ غسل الرضيع حيّا، ولكن... هل كانت الجدة متواطئة؟».

تصلب جسد زهية لهذا السؤال وحبست نفسها لفترة طويلة: «لا، لم تشارك جدّتي، بيد أنها كانت على بيّنة، أنا التي نسيت. هي وحدها التي كانت تكنّ لي حبا في العائلة. توفيت مع الأسف، سنتين من بعد. إذن، في أي شيء يفيدني التمادي في النسيان؟».

توجهت عشية الجريمة مباشرة نحو زهية بعد أن أعادني أبي إلى البيت وسألتها: «أين هو الرضيع؟» أجابتني زهية باكية: «في المقبرة». قمت في وسط الليل وذهبت إلى هناك. كان هناك ضجيج في الصباح لأنهم لم يعثروا عليّ! اعتقدوا أن بي مسّا من الجنون، حاولوا فكّ سحري، حجزي، لم يفلحوا. كنت أهرب بمجرد أن يطلقوا سراحي فسموني «الهرّابة الصغيرة». اقتنع الجميع، في النهاية، بأني جنّ، وهكذا تركوني وشأني. كنت أسير ليلا نهارا في كل مكان وأذهب

(1) بطل أسطوري إغريقي استطاع بفضل المدية، زوجته الساحرة أن يستولي على الصوف الذهبي، وإذ أراد الزواج بامرأة أخرى انتقمت منه.



للنوم في إحدى حفر الكثيب، في ساقية الوادي، مختبئة خلف القصب.

من حسن حظي أني لم ألتق يوما بأي معتوه. يجب القول أني، إن لم أعد أخشى شيئا، فلأن الناس أصبحوا يهابون عيناي المفتوحتين جيدا، هيئتي غير المناسبة وصمتي، وساعدتني الخرافات الباطلة... وبالمقابل، فإن هيامي كقطة متوّحشة كان يهيّج الدوريات العسكرية. كانوا يفتشونني مرتابين من مؤامرة المقاومين، يمزقون فستاني دون أن يعثروا على شيء.

لم يثنني هذا أبدا عن التسلط على الليل. مرّة أصاب أحدهم هلع بمجرد ظهوري فطرحني أرضا ووضع رشاشه على صدغي. كان على وشك إطلاق النار. وصرخ مسؤوله: «لا، يا أبله!»، رأيت عينيّ الرقيب: زرقاوين، زرقاوين، زرقاوين، ضوء أزرق في الليل المقمر. اقترب وركل سلاح ذاك الذي يرتعد فسقط من بين يديه. ربّت المسؤول على رأسي ووهبني حلوى، وكلما التقى بي لاحقا، توقف وابتسم وأخرج قطعة حلوى من جيبه ووضعها في يدي، يمنحني إياها دون أن يتحرك، اقترب على البنان، آخذها وأهرب ضاحكة، أسمعه يضحك بدوره... حلوى بدل رصاصة في الرأس، ألست محظوظة؟ لا بدّ أن الضابط أعطى تعليمات، لذا لم أضايق ثانية.

«أستطيع أن أعترف الآن، أحببت الحرب بسبب تعقيداتها المحتدة والإحساس بالخطر الذي يحذق بالجميع، بسبب الانقلاب الذي يحدثه تسارع الوقت، الظلم الذي لا حدّ له. كان هذا العالم المحزن، المجنون بالقيود، بالقتل، بالقفز على القنابل يقدم لي سينما بحجم الطبيعة - تم تجنيد عدد من الممثلين والممثلين الصامتين



من محيط البحر الأبيض المتوسط - فيلم حربي لا نهاية له، حيث التفخيم ينافس الوحشية، حدث ذلك منذ عهد طويل، قبل أن أكتشف شاشات القاعات المظلمة، وفي النهاية، العلبة السوداء لذاكرة أخرى.

تعسف كبير وأوضاع مبهمة نبذت إلى النسيان ما كان يمكن أن، يحدث لي. لقد أسهمت الحرب، بحجة كبيرة، في تمتين فقدان الذاكرة. علمتني كيف أوقف بلبلة عواطفي عند حدّها.

تم إلحاقي بالمدرسة بعد استنفاد كل الوسائل، أرادوا فقط التأكد من بقائي هناك بدل التشرد. لم تأخذ معلمتي وقتا طويلا لتعلن: «إنها عبقرية!» كانت عيناها زرقاوين، زرقاوين.

لم يكن محيطي يعلم ما معنى «عبقرية»، لا تصلح، أكيد. وربما أسوأ عاهاتي، لكني أحجمت عن الهرب، وفرّت لي المدرسة والكتب أكبر منفذ.

«ولكن، كيف يمكن أن ننسى تماما؟ سأخجل من الحديث إلى زميل في الطب النفسي، لا أعرف سوى الإجابات، لكن لا إجابة تقنعني، إذا كانت هناك حجة لا يقيها العلم من شيء».

«هل هي سنّي؟ هل هو الشعور بتقييد المريضة بالهولتر، بتخصيص هذا القلب للموت؟ إن اختفاء الخالة زهية ليس غريبا عمّا يحدث لي، علمت هذا قبل وقت قصير، في حين أني لم أرها ثانية منذ خمسة عشرة سنة. ثم هذه البلبلة التي تذوب علي مثل صور غرقى البحر الأبيض المتوسط، كما أنهم، الواحد تلو الآخر، أعادوا إخراج الصبي الميت من أعماق النسيان، إلى غاية نفاذه في حقل الذاكرة...».

وعت سلمى، شيئا فشيئا، ما هي مدينة به لهذا النسيان. إنه أصل



هذا التنكر الذي شكلها، وأصل العلاقة الخاصة بأمها، تلك العلاقة التي لا تمت بصلة إلى الخلافات المألوفة بين الأم والبنت.

أصبحت سلمى أرقا منذ ذلك الاغتيال، أصبحت تهرب. كانت تتسلل خفية لتفلت من الشعور بالاختناق.

لم تستطيع كل هذه الاعتبارات القضاء على ارتباك سلمى، تحاول مجددا أن تطمئن نفسها: «وقع لي حادث حيوي للذاكرة»، لكنها تقاوم هذه المعادلة التي تذكّر بحادث الوعاء الدماغي.




مكتبة
الفكر الجديد

ضدك

أصبحت سلمى تدرك، بداية من الآن، أن لا شيء يساعدها على رؤية أعماقها بصفاء سوى السفر إلى الصحراء، لكنها، قبل ذلك، ستقضي ثلاثة أيام في وهران، ستقيم هناك مدّة أطول أثناء العودة، ستكون بحاجة إلى رفقة، إلى، كيف تقص عليه ارتدادية الذكرى؟ إذا كانت سلمى قد تدربت على وضع الكلمات على الصور، هل ستكون قادرة على الاعتراف بها، على تبريرها أمام الآخر؟ كانت سلمى تعتقد أنها سليمة العقل، ثم بدا لها بغتة أنها لم تقنّع سوى هروبها بشكل من الانقطاعات المتتابعة ارتضتها. كانت دائما تسرع في الانسحاب عندما تدرك أنها تتقدم نحو متطلبات كبرى للحرية. كلّ هذا لتجد نفسها عرضة للعتمة الكبرى، مع نفسها، ومع البلوغ، في صدام مع كل ما فيها من أمور بالية. سرّ قذر يدس بداخلها الشك في جبنها، في دجلها. ها هي المأساة تقبض عليها من جديد، دون أن تقدر على النسيان مرّة أخرى.

أترغب فعلا في الذهاب إلى الصحراء؟ كلمة صحراء كافية لبلورة كل الرّعب الطفولي. رأت سلمى نفسها صغيرة ترفع عينيها إلى الأفق بخوف ممزوج بقناعة بأن لا شيء يمكن أن يحدث. لا سرّاء ولا ضرّاء، عدم مستبطن، وعليها أن تتعلم، من الآن فصاعدا، تحديد الجريمة. عليها أن تتفرّس في الأم وتسألها على كل ما اقتسمته معها دون علمها، عن كل ما لم تقولاه طيلة الحياة، ذاك الذي يفرّقهما إلى الأبد، ألم الأمّ هذا.



خليج وهران يرتسم خلف النافذة المستديرة. صورة فاروق تغزوها في الحال. تفكر في طفولتها، في حبهما على هذا الشاطئ، تدرك فجأة أنها، تبحث بعينيها عن ظله وسط الحشد في المطار، ما بين الناس المكدسين خلف الأروقة، كأنما تتوقع أن يقبل فاروق نحوها.

أنكبت على ملاحظة الأماكن التي من حولها للإفلات من صوّر الماضي، لم يتغير المطار. عاشت سلمى هنا عدة أوضاع متباينة. تعسف الأمن، إهاناته، الاستنطاقات المبالغة لأي فظ، لكنها عاشت أيضا أجمل لحظات اللهو، في هذا المطار تخلّت عن فاروق منذ أزيد من ثلاثين سنة. كانت ذاهبة إلى بشار، وقبل الفراق وهن فاروق فجأة: «لا تذهبي، ليس اليوم». لم تتراجع، لن تغيب سوى يومين، كان فاروق يعرف جيدا أن الذهاب إلى العائلة ليس لعبة، إلى حيث لم تشعر أبدا أنها في بيتها، ما عدا أثناء بعض اللحظات التي كانت تقيم فيها علاقات مفارقة مع أبيها الذي توفي لما كانت مراهقة. كانت الرغبة في الحصول على صوّر منه هي التي فرضت عليها هذا السفر. لم ترغب سلمى، إلى حدّ اليوم، في الاستيلاء عليها. قد لا ترجع أبدا. من يدري؟ اتفق فاروق وسلمى على الفرار من الاختناق، من قمع الجزائر، من محظوراتها، من رقابتها ونظامها العسكري، أن يتركا خلفهما رفض أولياء فروق الذين يرفضون سلمى، أن يذهبا بعيدا ويعيشا حبهما. بعيدا.

كان ذلك في بداية الخيبات التي تسببت فيها ابتزازات النظام. ابتدأت المواجهة بين الطلبة التقدميين والطغمة الأصولية. كانت سياسة بومدين المحافظة مبنية على مسرح العرائس المأسوي،



من فرط ما تلاعب على حبال الدين والسياسة توصل إلى تقسيم المجتمع إلى جماعات متصارعة، وكانت القوى التي ستبتلع البلد قد استولت على المشهد.

كان فاروق وسلمى في العشرين تماما، وبعد ذهاب سلمى سلك فاروق الطريق الساحلي. غناء البحر ممزوج بغناء المحرك... ثم الحادث. جند ڤومي الأصدقاء واختلق آلاف الأعذار لتأجيل دفن فاروق.

استطاعت سلمى، بعد عودتها من الصحراء، أن تحتضن بذراعيها جثة حبيبها، وكانت عبارات البارحة تدور في رأسها بإلحاح: «لا تذهبي، ليس اليوم». هو الذي ذهب إلى الأبد.

لم يكن لسلمى أيّ احتكاك بعائلة فاروق أثناء المراسم الجنائزية، لقد كانت تحتضن ڤومي، محاطة بعدد معتبر من الأصدقاء والمعارف. هل بمقدور فاروق وقد فارق الحياة أن يسكن الأحقاد، الرفض الذي لم يقدر على نزع فتيله يوم كان حيا؟

في اليوم التالي عادت أدراجها في طريق المقبرة، ستذهب لتستسلم لعائلة فاروق، وكان فاروق يتعقبها مع ثلاثة «فجّار» على شاكلتها. كانت عائلة فاروق تقول هذا عن سلمى: «فاروق، أبتعد عن أميرة الفجرة هذه!».

دفعها إلى العجرفة مزيج من اليأس والسعار: لن تعيش مأتما يوازي مأتمهم في الأماكن نفسها خشية ظهور مشهد من التضارب لدى الموتى، لا. وفضلا عن ذلك فإن القبر لا يمكن أن يذكرها بأي شيء يخص فاروق.

لم تدرك سلمى، وقد صعقها الألم، أن دلالة العائلة ذاتها هي



التي تحجرت في صورة المقبرة. العائلة والمقبرة، وجهان لتصور قديم استحال غبارا، وفضلت سلمى البوح بغمها لارتداد أمواج البحر.

وضع أصدقاؤها باقة الورد في المنعرج الذي مات فيه فاروق، وبعد ساعتين، لاحظوا أثناء عودتهم من الأندلسيات، حيث تناولوا خمرا، أن الورود اختفت.

استبد بهم ضحك متواصل وقد تخيلوا الاختلاس والثروات الجديدة لهذه الباقة.

مهما كانت الخطورة الواضحة لبعض المنعرجات التي كالقرامل، فإن سلمى رفضت إسناد موت فاروق لها وحدها، وإذا حدث ذلك في هذا المكان تحديدا، فإنه يترجم بخاصة، مدى حاجته إلى البحر، وفي أيّ وقت. كان البحر مكان مواعيده كلها، الحرّ والسرعة، كان ينتشي بالسباق الذي لا حدّ له، إلى غاية صدمة الموت.

تخلت سلمى قبل الأوان عن هذه الأرض التي انغلقت نهائيا على جسد فاروق، أصبحت أكثر وحدة من ذي قبل، لكنها التحقت بقومي، الرجل الآخر الذي يحافظ على الصلة، ولأنها عاشت علاقات عاطفية رائعة في وهران. فقد أبدت حنينا إلى هذه المدينة، الأمر ليس كذلك، بل مختلف مع صحراء مولدها، بل مختلف تماما.

ها هي سلمى في المنعرج ذاته بعد ثلاثين سنة، باقة بيضاء بين اليدين وقومي إلى جانبها. يحضنها صديقها ورأسه ملتصق برأسها.

البحر يتماوج على مقربة عشرين مترا تحت الصخرة المعتمة وقد تقزح في مرمى البصر، ركزت سلمى على ارتداد الأمواج، ها هنا ستطفو باقة وردها وتتفتق، من أجل كل الذين ضاعوا في البحر.



أخرج هيجان ڤومي سلمى من حلم اليقظة. استاء من وضعية الشوارع متخذا إياها شاهدا على الوضع المزري لوهران بسبب إهمال السلطات. لم تعد الجدران تتذكر رائحة الطلاء وتركيبه، واجهات البنايات المقشرة، المليئة بالصدوع تدين الإهمال، وكحجة على ذلك أماكن تفريغ القمامات التي تتكدس هنا وهناك، تلك التي نتزلج، متعرجين فيما بينها.

أحياء الوزراء في الجزائر العاصمة، السفارات، مسارات الشخصيات الرسمية كلها مكلّسة، مصونة، وتظل وهران منفية مع سكانها في الازدراء والأقذار، يضاف النمو الديموغرافي إلى الإهانة التي ألحقت بوهران.

المدينة مثل جرح منتن على وجه بلد لا يستطيع الاهتمام بنفسه لأنه امتنع عن تعلّم الحب.

جلست سلمى وڤومي حول طاولة في «المزرعة» **بكاناستيل**. شابان سباقان يتداولان أغاني السبعينيات، أغاني سنّ العشرين. إرث غدا مطلوبا أكثر فأكثر لإحباط الكشط الأصولي.

فحصت سلمى وجه صديقها: عينيه الكبيرتين الداكنتين، أنفه المستقيم، كلّ ما في تقاسيمه يتنفس البشاشة، ابتدأ صدغاه يشيبان قليلا، وبدت هذه الخيوط الذهبية الداكنة السمرة من آخر إفراط في الأبهة لهذا الرجل المتمرّس بالرقة.

حلّ قوام قوي وأنيق محلّ هيئة المراهق، لا شيء يثنى في جسده، ولا في غضبه وحماسته. تذوقت سلمى لقياهما. إنها تستمد من رفقته قوّة الاستمرار، الذهاب إلى أقصى الكابوس.

لم تتخذ في هذه اللحظة أيّ قرار بعد، خرجت الكلمات أخيرا،



فضت غلاف الصمت. ينحني ڤومي تلقاءها، يستولي على إحدى يديها، على الاثنتين، يضغط عليهما ولا يتخلى عنهما. قصت عليه سلمى كلّ شيء، بالتفصيل، إحساسها بالخجل، لاسيما إحساسها بالذنب، وإذ مرّت لحظات الذعر الأولى أخذ ڤومي يحّرك رأسه علامة على إنكار اتهاماتها الذاتية.

بقيت سلمى خائرة القوى بعد انتهاء حكايتها، وشرع ڤومي لحظتها في إزعاجها: «كان يمكن أن تنفجري في هذه السن لو لم يكن هناك إضمار للنسيان... سأذهب معك إلى الصحراء، أنام في فندق بشار. ستعرفين أني هناك، وإذا حدث مشكل هاتفيني وسأصل».

أي خلاص بعد أن كشفت عن خفايا قلبها! واستمر ڤومي في مرافعته، إنه أحد محاميي وهران الأكثر بروزا: «لي إضاءة أخرى تخص التزامات التحفظ تجاه أمك وشعورك بأنك عشت منفية، أتعس وحدة بين إخوتك وأخواتك. أنت نجوت بتعليم نوعيّ، أمّا هم فتلقوا إفساد العقل المبرمج للمدرسة الأصولية والنكوص الاجتماعي. لكن هذه التفاوتات بينهم وبينك لا قيمة لها بالنظر إلى أنك الوحيدة التي شاهدت هذا الذي قتل الطفل، كأنّ أمكم لم تكن واحدة!هل فهمت؟ كان الأمر خارجا عن الوعي. لكنه كان هنا، وطرق ڤومي بسبابته على رأس سلمى قائلا: «كان هنا».

استمّرا في الشرب. النبيذ جيد، بيد أنّ سلمى لم تمسس صحنها، تظاهر ڤومي بنقر لقمتين أو ثلاثة من صحنها قبل أن يردّها ويأخذ سلمى خارجا.

تذكرت سلمى وهي ممدة بالقرب من ڤومي. بدا لها بعد وفاة فاروق أن جسدها سيتصدع لو لم يدعمها جسد ڤومي. عاشت



ملتصقة به، مشدودة إليه، وكانا يتقاسمان دائما هذه الرغبة المتبادلة في العناق، في الضمّ.

أسقطت سلمى وڤومي على بعضهما كل الغيابات وكل الفقدان لأنهما عاشا محرومين من العاطفة العائلية بسبب التعارضات الحيوية، ومن دون أولاد بسبب فقدان الحب أثناء الطفولة. عادت إلى ذهنها إحدى الجمل الأولى التي قالها ڤومي بعد مغادرتها الجزائر: «أصبحت متعدد الزوجات منذ ذهبت، أخرج إلى المدينة مع محبات كثيرات، الفتيات الوحيدات كثيرات، لكني لا أنام مع أية واحدة منهن. ستظلين امرأة سريري الوحيدة».

سلمى لا تجهل أنها المرأة الوحيدة التي نامت مع ڤومي بعد انفصالها النهائي عن عمر. العلاقات الجنسية لصديقها لا تتم إلا خفية، في الأماكن المستبعدة جدا. الحذر مطلوب. ضاعف التفتيش وشايات الجيران والأصدقاء المزيفين، وتحوّل البوابون إلى حرّاس شرسين لأخلاق وبائية.

قلقت سلمى على ڤومي في سنوات الإرهاب، ركبها وسواس انتقام عمر منه بإفشاء لواطه. طمأنها في أحد المساءات عندما ألحت عليه للالتحاق بها في مونبلييه بانتظار مرور المأساة. لا خوف من خيانة عمر. أصبح يحس بالملل أكثر من ذي قبل بعد أن نكث بوعده وتركهم يزوجونه، وبدأ عندئذ يضمر إجلالات لثبات ڤومي. الجنوسية لا تعرضه للخطر أكثر مما يعرضه الإلحاد. كان يتجنب التصريح بذلك أمام الملأ طبعا. كان معروفا بأنه زير نساء، ويحصل أحيانا على ذكور نوعيين.

إن ما يمقته هؤلاء المخبولون، المتعصبون أو الذكوريون من



كل الأصناف، هو الدور الأنثوي في العلاقة الجنوسية. ما يرفضونه أو يتنكرون له هو المتعة المتبادلة. هناك، بالنسبة إليهم، نبل الشبقيين وخزي المستقبلين النساء والأنذال أمثالهن، أمّا الشبقيون فيشرفون فحولة الرجال، يفرضون الاحترام عندما تخضع حدتهم الذكور والإناث، وهذا الاعتبار يضمن الحماية. يسخر ڤومي: إن هؤلاء المخبولين، لا يستطيعون أن يتصوّروا بأن «الشبقيين يمكن أن ينقلبوا إلى النقيض بتصوّرهم للجنس الذي تم تلخيصه في الزنا في اتجاه واحد».

«هل أستطيع أن أنام لصقك؟»، اندهشت سلمى. عكس صديقها الطلب فجأة:

«كيف تنامين هذا المساء؟ لصقك». أسندت جيدا رأسها على تجويف الكتف للرد على السؤال:

«والمغرمون؟ هل من جديد؟» فكرت في السنين الأربع للوحدة القاسية التي مرّت بها. كان أصدقاؤها يتساءلون عن هذا المتخيل الجليل الذي اخترعته حتى لا تترك أيّ مجال للحب. وأي حب؟ كان هذا السؤال يفتح فجوة فيها وحولها. ثمة أمر ما يغيب عنها ولا تعرف عنه شيئا، تنتظر دون أن تنتظر، دون أن تفهم، كما في مواجهة الصحراء والبحر، كما يفقد الكاتب مادة كتابية ومعناها.

كيف ستتصرف الآن مع هذا؟ هل يمكن لحبّ أن ينقذها مرّة أخرى؟ تتذكر سلمى زوغانها لعشريات، وأيّ زوغان! بذلت كل جهدها لتجنب السنوات الأولى لحياتها. صحيح أنه كان عليها إبعاد عدد من التخوفات بسرعة كي تستطيع أن تتقدم. كانت تنتظر أن تصبح امرأة زمانها، وكانت تجهل بأنها ستتعثر في يوم ما في هذه



الطرق المسدودة، وسوف لن يكون لها منفذ آخر سوى بملاحقة أبسط أحاسيس إدبارات الطفولة.

شاهدت سلمى نفسها قبل قليل، وهي تسير مع ڤومي تحت أوراق شجر البلوط الخضراء، أنها طفلة تمشي في شبكة الشوارع الصغيرة الظليلة للقصر، هنا وهناك ينفتح باب على ضياء فناء أو سطح، مثل كأس تحت الشمس. كان الرمل الدقيق يجري تحت باطن القدمين ويخنق وقع الخطى. كانت مغتاظة في ذلك اليوم إذ اكتشف أن ولدا صغيرا يتعقبها في الأزقة. لم تهرب من بيتها ومن إطباقات إخوتها لتكابد استبدادا آخر.

لكن علي كان يبقى على مسافة محترمة، صامتا وعيناه مليئتان بالتدله، ومع الوقت والتيه زالت شكوك سلمى وانتهت بقبول تواجد الولد، ثم أصبحت تمازحه وتقدّره.

وبعد شهور اعتقد أنه آلفها بعد استعمال كنوز الصبر فحاول التضييق عليها، وحينها دفعته سلمى بغضب كاسح وبرعب. وجد المسكين نفسه ملقى على الأرض، مرعوبا مثلها تقريبا. هل يجب ربط عدوانية ردود الأفعال هذه، بمجرّد تبيّن ملامستها، بالصور المتوارية؟

ابتسمت لاستحضار المغامرة السيئة للصغير علي وابتعدت بهدوء عن ذراعي ڤومي حذرة لئلا توقظه. لقد رأت بفضله طلوع الفجر على ذكرى لطيفة من ذكريات طفولتها، وقبل أن تتمكن أخيرا من النوم قالت في سرّها، فعلا، هي التي كانت تحب الضياع، في صغرها، في متاهة القصر، جعلت ذاكرتها متاهة ترفض ولوجها.




مكتبة
الفكر الجديد

المواجهة

الانفعال يشنق سلمى بمجرد اقتراب الطائرة من المناطق الصحراوية. أسهبت وهي ملتصقة بنافذتها المستديرة، «إنه الله من دون بشر»، هكذا قال بالزاك في «شغف في الصحراء». كتّاب من دون أيّ إله. قالت وقد أغرتها معاكسة الحجة.

يعود، الفضل إلى الكتب التي أنقذت سلمى من الغرق في اليأس أو الجنون في مواجهة هذه المساحات الشاسعة التي تسجن الناس وتحبسهم في البؤس والجهل.

تبدأ المواجهة أولا مع هذا المكان: كان القلق الموصول بالحب الذي حملته سلمى إلى الصحراء ملازما لسمّ السرّ الذي يلبد فيها منذ عقود، بحيث لم تكن قادرة على رفع بصرها إلى الأفق دون أن تخشى تخيله منغلقا عليها كقبر من الرمل.

لقد ربطت منذ وقت طويل هذا الاضطراب بتعسفات أخرى. خنق كبير وعصيان يبرزان إلى السطح ويساعدانها على عدم ترك فتحة الباب الأرضي للخطر الكبير ينفتح عليها، مهما كان خاصا، بيد أن المكبوت كان يشتغل، جارا المبالغات البشرية إلى أوجها، مثل التجاوزات المحيطة.

لم يكن لها من خلاص، بيد أن المكبوت كان يشتغل، آخذا المبالغات البشرية إلى أوجها، مثل التجاوزات المحيطة.

لم يكن لها من خلاص آنذاك سوى المواضع الأخرى التي في الكتب، ولا منقذ إلا في الهرب نحو البعاد.



دخلت سيارة الأجرة القديمة إلي الحي للتوّ دون أن تنتبه. طفت من جديد أحاسيس أخرى بلبلت عقلها. تصلبت، وكانت نظرتها موجهة مباشرة إلى الأمام، بدا لها الشارع الرئيس منزوفا، خال على عروشه. الضوء يرتجف في الحرّ. تراءت واجهات البنايات غامضة، لا شكل لها. بدت السقوف متحركة، كأنها تهدد بالسقوط وقد قرضها الفقر ورمّدتها الألوان.

رفت سلمى عينيها لمقاومة الحكة وإبعاد أثرها المشوّه. إن لها فكرة موجزة عن مدرستها، عن الحائش والكثيب. هل سيكون لها متسع من الوقت لكي تطأ أماكن السعادات هاته التي تفننت الطفولة في الاحتفاظ بها رغم الخراب. سعادات، نعم، كل السعادات والملذات. بدت لها فكرة السعادة ذات صلة دائمة بالخداع الديني، ولم تستهوها أبدا.

عادت إلى الأهم وصدرها ضيق حرج: إخطار الأم. لهذا جاءت، تأكد ڤومي بأن نقاله يلتقط خطا بعد أن ضغط لآخر مرّة على يدي سلمي اللتين ظلتا في يديه منذ مجيئهما من بشار. نزلت سلمى من السيارة مضطربة دون أن تقول له كلمة واحدة، ودون أن تقبله حتّى، وانتظر ڤومي أن تدفع الباب ليطلب من السائق الرجوع القهقرى.

«سلمى! يا الله، إنها سلمى!» شابت الأم، تبدو أكبر بكثير من سنواتها السبعين. انقبض قلب سلمى لهذه الملاحظة: بقيتا طويلا بعيدتين الواحدة عن الأخرى، مضى كل هذا الوقت دون أن تكون لسلمى أمّ حقيقية وعائلة. الفارق بينهما ليس خمسة عشرة سنة، سلمى هي بكر أولاد الأم... ماذا كانت تعني كلمة ابن بالنسبة إليهما؟ ثقل ما تريد سلمى قوله خلط كل الباقي.



عناق المرأتين يبصمه الانزعاج، كالعادة. لم يغير عدد سنين الانفصال أي شيء. قفزت إحدى الغريبات إلى عنق سلمى، قيل لها إنها سلفتها. زوجة أصغر الأبناء، كان على رأسها وشاح، تعرفت سلمى بالكاد على أختها الصغرى، نادرا ما التقيتا، كانت سلمى في النظام الداخلي في صغرها، وما عدا ذلك فإنها لم تعاشر باقي إخوتها وأخواتها. كانوا كلهم يعودون إلى بيت الأم في آخر النهار.

كانت سلمى تغلق على نفسها في الداخلية، بما في ذلك أيام السبت والأحد وأيام العطل، ثم ذهبت أبعد فأبعد: إلى جامعة وهران ثم إلى الجامعات الفرنسية.

كانت تعيش زياراتها النادرة والخاطفة لهم مع الكتب، في الروايات، وكان خيالها يحجب الواقع الذي لا يطاق، كانت هي الغريبة دائما في العائلة، منذ البدايات الأولى للأرق التي كانت تلفظها من الجسد العائلي النائم على الأرض.

الصغرى بدينة، طلّقت، حورية كذلك. تعيشان مع أبنائهما عند والدتهما. هاهم الأطفال يركضون كلهم طمعا في الحلوى، اكتشفت سلمى الأمّ في دور الجدة. إنها تلاطف، تهمس كلمات طيبة، الصغار ظرفاء، إنهم من الكثرة بحيث امتنعت سلمى عن عدّهم، إنها تنظر إلى أعضاء هذه العائلة المتحدة ظاهرا، أيعرف بعضهم السرّ الكبير؟ هل يقتسمون دناءات أخرى كما سلمى؟ ماذا جاءت تفعل ها هنا؟ تصفي حسابات؟ أغلب الضائعين في المأساة توفوا: جدتها، أبوها، زهية، وحتى حليمة، أصغر أخوات أمّها. تلك التي خدعت مرتين، من أختها ومن طالب الزواج... لكن الوالدة ما تزال حية، والعمّ أيضا: إجمالا، اثنان من الأبطال المحوريين لا وجود للتقادم. إن رعبا كهذا



سينتهي دائما بالظهور مجددا، وضعت سلمى الأسئلة والأجوبة، بقيت خارجا، إنها تبصر المحيط من الخارج بمنفعة. لأنه، وبرغم الأفكار السيئة التي تلازمها، فإنها لا تبدي أية عداوة، أيّ غلّ، ما عدا هذا الحزن الكبير: حزن يشنجه انتظار الحكم، حقيقة الأم. الآخرون ليسوا معنيين. إنهم يزاحمون وقتها بلطف، هذا اللطف الذي يضيّق النفس لأننا لا نعرف أبدا كيف نتخلص منه.

يحدث دائما مجيء غريب إلى هذه النواحي، التي لا يحدث فيها شيء، لحظة من الغليان. وبدل أن تبالي بها والدتها انشغلت مع بقية نساء البيت بتحضير الفطائر وخبز الدار وصينيات الشاي والقهوة.

العمّ جيسون حاضر بدوره مع زوجته وبناته المتوشحات، أصبح هو بطريرك القبيلة منذ وفاة والد سلمى. يبدو أنه يتحمل هذا الدور ببلاهة مفخمة. ولكن، دون أية ذرة من السلطة، لقد أرسل طفلان لإعلام بنات زهية اللائي هبطن فجأة بموكبهن.

انتشر خبر مجيء سلمى في كل البيوت، قدمت الجارات تباعا: «كل ذلك من أجل التعاقدات، وقد يصل الأمر إلى درجة قتل الأطفال»، قالت سلمى مقاومة رغبتها في الهرب. «مبروك! مبروك!» تهانينا، «عادت الهرّابة».

أصغت سلمى جيدا. لم تضف أية واحدة صفة «الصغيرة» القديمة «لهرّابة» اليوم. ولكن، لا الهروب البعيد ولا رمزية السنّ سمحا لهما بذكر كلمة «الكبيرة»، لأن الهروب الكبير خطأ له وزنه في المسكوت عنه.

ألفت سلمى نفسها، في أقلّ من ساعة، تجلس وسط نصف



سكان الحي في ظل رائحة الشاي والنعناع والعرق المتصبب، في صخب حكايات العائلة وأخبار الأبناء الغائبين، لأنّ أغلب الأبناء هنا ينتهون بالذهاب... لم تكن سلمى ترى من قبل، في اقتحام الناس البيوت بلا مبالاة سوى الرغبة في التلصص والتفتيش. لقد كانت تعيش في حجّ النسيان، مسيّجة بالكتب للانسحاب من هنا. أمّا اليوم فإنها ترى النساء بعين أخرى. قلّة المعرفة هي التي تشدّهن إلى بعضهن، معدمات، وتشحذ الإهانات والآلام إنسانيتهن الخامدة، المستسلمة أحيانا، ليس إلاّ. مستعجلات دائما لتقاسم السعادات والآلام مع الأقارب، مع جارتهن. مثيلاتهن.

كيف لم تقدر إذن هذه الأريحية وهذا التسامح على انتزاعهن من هذا الخضوع الذي يقارب نفي الذات؟ الويل لمن يتعدى على حدودهن ويوقظ غرائز قربانية.

سلمى ترتشف قهوة، في حين شرعت عين الطبيبة السريرية في معايرة الجمع. أطلقت العنان للذوعية العقل لمقاومة الوهن. الأم، كما أغلبية مدعواتها يسترخين كلهن في شكل كومة دهنية. الأخوات لسن إلا في البداية. اللحم والخضر والفواكه ليست في المتناول في هذه الدرجة من الفقر. تعوّض النسوة بإنتاج تحف من الحلويات بالمواد الطحينية، حيوات من الجلوس أو الرّدي في بعض الأمتار المربعة، تحضير الحلويات، قطع الحلوى، الكسكس، القهوة في العاشرة، في الغداء، وكذلك مع الشاي مساءا.

يبتلع كل إبريق شاي، على الأقل، من اثنتي عشرة إلى أربعة عشرة قطعة من السكر، ويتطلب عدد النوبات ثلاث أو أربع أكلات خفيفة ترافق المشروبات.



ينحني إبريق الشاي ويشرع في الصبّ وهو يرتفع بشكل يجعل المشروب يغني، يرغي ويتهوّى في الكأس. ينقر من أجل الإنزال، كقبلة ناعمة، آخر قطرة على السطح العنبري، يبتعد، ثم يعيد الكرة مع الكأس المجاورة.

رقص إيقاعي شعائري شبقي لتقييد السيداتّ في قدّاس.

سنوات من الإلقام والسكريات منحت النساء بدانة مصارعي السومو، وعندما لا يخنقن أبنائهن، فإنهن يحشوهن بحياة شخصيات رخوة.

السمنة هنا هي معيار الجمال، والشره هو معيار الصحة.

تسلت سلمى بملاحظة حركات النساء، بالسماع إليهن، سلوان قبل مواجهة الأم وجها لوجه.

انشغلت الجارات وزوجات الإخوة بتحضير العشاء. إنها اللحظة المناسبة التي اختارتها سلمى لتهب الأم الهدايا، وخاصة الأموال التي أحضرتها لها. لم تخل سلمى بهذا الواجب حتى عندما كانت بعيدة، إن ذلك يعفيها من واجب العودة، لكنه يجعل محضر الحالة أكثر رعبا: كان التبرؤ من هذه الضريبة هو التعبير الوحيد عن الرابطة العائلية. أسرعت الأم لإخفاء مورد الغنى بين نهديها. نظرت سلمى إلى صدرها. لم تر نفسها لصقها وقد عادت بها ذكرياتها إلى الماضي البعيد. كانت تشاهد، وهي صغيرة، الآخرين يجيئون، يلتفون حوله ويستمدون منه الحنان والمداعبات. وخاصة الأطفال.

كان هناك دائما حاجز مقلق أكثر فأكثر، حاجز تجهل سلمى ما يخفيه، وكان لا يتجلى إلا في صورة تهديد مائع.

وصل الإخوة عشيا، الأكبر أوّلا، ما زال كهده، مستبدا ومنفوشا.



لا بدّ أنّ عمله كموظف صغير في بلدية القرية لم يغير طبعه. تخيلت سلمى أنه يتمتع طوال النهار باستغلال امتيازاته، بمجرد ظهوره يفر الأطفال والنساء بخطوات صامتة. أصدر ثلاثة أصوات مرحبا بسلمى وألهب الأم بعينية.

ابتسمت له هذه الأخيرة ونظرتها ملأى بالطيبة، وحثته على التريث: «لا تقلق، أنت تعرف بأن الفتيات بصدد تحضير شايك!» وصل التوأمان معا، حليمان كديدنهما. يمتلكان تجارة متواضعة في بشار، وهما مكتفيان بها لأنها تساعدهما على البقاء جنبا إلى جنب. ولا يجلسان عند الأم إلاّ بعد الإحاطة بأصغر إخوتهما. وقبل ذلك، كان إقحام «الصغير» بينهما يهدف إلى توقع حماقاته، بيد أنّ ذلك لم يكن ليمنعهما من الاستمرار في مؤامراتهما قدام عينيه، أما اليوم فإنهما يهمزان ويلمزان. والحال أن «الصغير» الذي غدا شديد البأس أصبح ذا لحية سيئة جدا. فحميّ مخيف وقّع التحاق الصغير بالأصوليين دون أن يسند له سلطة، ما عدا سلطة إذلال زوجته وجعلها ترتدي حجابا. إنه لا يشتغل. وهناك ولدان معلمان محجوزان عند عائلتيهما في قرية مجاورة.

أقامت سلمى في نهاية السهرة على دكة في الغرفة المخصصة للضيوف. على هذه الدكة تم وضع فراشها. ونام الآخرون موزعين في الغرف المتبقية. التحقت بها أمها أخيرا بعد الوجبات وشاي آخر وضحكات، وبعد قصص القبيلة، السخيفة منها والمروّعة، بعد غضب سلمى من تصريح أخرق لأختها: «كل ما يحدث لنا بسبب اليهود». وبعد أن أخذت النسوة أبناءهن وقد ناموا تباعا في أحضانهن أو مستندين إلى تنوراتهن.



يمكن للاستنطاق أن يبدأ. لقد جاءت سلمى من أجل هذه اللحظة. يجب أن تستغلها: «أريد أن تحدثيني عن موت زهية». أجابت الأم على مضض. حكاية سرطان كباقي الحالات. ما عدا أننا بعيدون هنا عن كل شيء. لا شيء لنا. لا شيء، ما عدا التضامن. التضامن لا يُسكن دائما، وقد يجهز عليك أحيانا.

عادت سلمى إلى الرضيع الذي تمت التضحية به: «هل كان الرضيع الأول أنثى؟ وكيف ماتت؟» تفاجأت سلمى لسؤالها. لم تفكر إلى حد الآن لا في جنس الرضيع ولا في اسمه، مع أنها رأته عاريا يتحرك في لحظة الولادة. لكن الرؤية التي رسخت في ذاكرتها وبلبلت كل شيء هي رؤية الرضيع الملفوف في قماطه. مومياء صغيرة مشدودة من قبل، ثم قماش الكفن.

بينت الأسئلة الدقيقة التي تضمنتها المواجهة جنس الرضيع. «بلى، لم يكن بنتا. كان ولدا. وُلد المسكين بكثير من الإفرازات في الأنف والحلق من فرط ما تناولت زهية منقوع الحشائش والجذور للإجهاض. خنقته». صاحت سلمى فجأة من شدة الغضب: «تريدين القول أنكم كنتم ترغبون كلكم في قتله!وبأنك خنقته؟ أبصرتك!».

أقرت الأم بالفعل، ولاحت من عينيها أضواء باهتة. تعرفت سلمى إلى هذه النظرة. كانت تشعر وهي صغيرة، ثم مراهقة، بهذه النظرة التي تتفحصها. كانت تصطدم بها دون أن تستطيع تفكيكها، لقد تبينتها الآن، كانت تطرح أسئلة لجوجة لا يستطيع الصوت التعبير عنها: «هل تعلمين؟ هل رأيت؟ ماذا استنتجت؟» ويبدو الآن أنها تقول: «كنت إذن على بيّنة! كنت أشك في ذلك، هذا الأمر لا يدهشني عندما يصدر عنك». تفسخ وجه الأم شيئا فشيئا، رفعت



يديها إلى السماء: «ماذا كنت تريدين أن نفعل؟ كنا مضطرين إلى إخفاء كل شيء!».

ارتعدت سلمى. تمنت كثيرا جدا تكذيبا جذريا، إلى النهاية. بكل قواها. وتمنت كثيرا جدا إسناد هذه الرؤية المرعبة لكابوس، لليل من الرياح الرملية. لعاصفة مجنونة. صعقها الاعتراف.

قفزت بعد لحظة من دكتها باتجاه حقيبتها المطروحة قربها، دسّ لها ڤومي قنينة ويسكي مفلطحة لحظة سفرها. استولت عليها سلمى وشربت من العنق. هوس الاختناق، نظرت إليها أمها وعيناها نصف مغمضتين.

لم يعد هناك صوت، لا في البيت ولا خارجا. الجميع نيام. عادت سلمى للجلوس والزجاجة في يدها. بدا لها أن عقلها انفصل عن الجسد تحت وقع الصدمة الكبيرة. لم تعد تحس بشيء، ما عدا لهيب الويسكي في الحلق.

تفحصتها أمّها من الأسفل، لم يجرؤ أي كان على استهلاك الخمر في بيتها من قبل، أكبّت سلمى على الشرب، الأم هي التي قطعت حبل الصمت: «ماتت كل أخواتي، وحتى الأصغر مني، لحسن الحظ أنهن تركن لي الأولاد...».

رنّت الجملة بغرابة، وإذ لم تتحرّك سلمى، تفرستها أمها بحياء قبل أن تجرب إلهاء آخر: «أنت لا تتقلدين أية قطعة ذهبية...» حركت سلمى رأسها مستهزئة ثم هزّت كتفيها.

كلمّا تحدثت أكثر اكتسبت نبرة أمها مزيدا من الحنان والصرامة. «من عادتك أن تهزي كتفيك، حتّى أمام صناديق جهاز العروس الذي استغرقت أعواما لجمعه بسبب الحرمان المتنوع. لقد انتظر أخواتك،



ما عدا هذا».

أخرجت أقراطا ذهبية والأساور السبعة التي كانت ترتديها. «ما زلت أحتفظ بها لك. كبعض الأوهام الأخرى...» وإذ كانت الأم تحدثها نزعت الأقراط من أذنيها وسلمتها إياها: «أريد أن تحمليها

- لا أرغب في مجوهراتك، احتفظي بها. الأقراط، حتى المقلدة منها تلتصق بالسماعة الطبية، أضيّعها في كلّ الجهات، في أسرّة المرضى...».

توقفت سلمى في وسط الجملة وألقت نظرة شرسة على الأم. ولكن، عن أي شيء تتحدث؟ لم تأت لتحدثها عن المجوهرات، انقبض وجه الأم ونهضت: «أنت مرهقة جدا. أتركك تنامين». وقبل أن تجتاز عتبة الباب تراجعت سلمى عن قرارها وسألتها: «ما اسمه؟

- لم يسمّ. لم يعش أكثر من يوم واحد».



كنّا مضطرين إلى إخفاء كل شيء

لم يشف الويسكي غليل سلمى. توزعت ما بين الضيق والهلع وانتفشت عن آخرها. يبدو لها أن عظامها من حديد وأن شعرها كتلة من الأسلاك الشائكة.

بقيت هناك تحرق دمها: لم تسجل إذن ولادة الصبي في البلدية، لم يوجد، فقط. «كنا مضطرين إلى إخفاء كل شيء!» كيف يمكن للأم أن تنام بعد هذا الاعتراف؟ «ماذا كنت تريدين أن نفعل؟» تزويج زهية بأحد الأعمام، قتل رضيع، الأمر مختلف عن إجهاض في نهاية الأمر. لماذا لم يفعلوا هذا؟ أكانت مواجهة الفضيحة العائلية - الوعد، ثقة شيخ، والد زهية، خطيبة وجدة، هذا الخداع الثلاثي - لا تتطلب حلولا أخرى شجاعة، ما عدا اغتيال الرضيع؟ لماذا كانوا كلهم جبناء؟ هل قتل إخوة زهية وإخوة الأم، الأخت والخال، ابن عمّهم؟ سلمى لا تؤمن بخرافة الأخذ بالثأر. ليس في هذه العائلة. سيجعل ذلك الرقابة الذاتية، العقاب الذاتي، صلابة العادة الظلامية أكثر حتمية، تحيلها الجملتان النهائيتان للأم على هذا بالذات: «ماذا كنت تريدين أن نفعل؟ كنا مضطرين إلى إخفاء كلّ شيء!».

كم هو عدد الأطفال غير الشرعيين الذين خنقوا في هذا البلد؟ في سبيل فداحة إكراهين متعارضين: الاختلاط والكبت الجنسي، يقين مخيف تدخل ليرصص أكثر ليل سلمى: بعدد السكان الذي تضاعف أكثر من ثلاث مرات منذ الاستقلال، النزوح الريفي الجماعي، الإفقار، نقص المساكن الذي يجعل عدّة أجيال من عائلة



واحدة يتراكمون في مساحات ضيقة، لا بدّ أن الجزائر تحطم الرقم القياسي في زنى المحارم وقتل الأطفال. لكنّ هذا لن يعني أبدا أية إحصائيات.

وجدت سلمى نفسها جديرة بالشفقة، لقد جعلت أمّها تنكسف وتغفل وهي تردّ على أسئلتها الشخصية. والحال أنها لم تكن بحاجة إلا إلى اعترافها لتستوعب من التفصيل كل ما كان مخادعا ووضيعا في المسألة. إنها من هنا ومن هؤلاء. لا عيب فيها. يكفيها، إن لم تحترس، أن تحك قليلا برنيق الثقافة، أن ترجئ صرامة عقلها النقدي لتكون مستعدة لتكون معهم يدا واحدة إلى غاية أعماق ظلماتهم. إنها تعرف ذلك، ولهذا ظلت تهرب باستمرار.

استطاعت سلمى أن تلاحظ، عندما كانت طالبة في وهران، التعبئة والخطط العائلية التي لا تحفل بشيء من أجل استرجاع متمرّد: منع الغداء، ابتزاز عاطفي، ضرب ومعاملات جسدية قاسية، احتجاز أو العكس، الطرد... من التعريض إلى الشبهات، ثم إلى هاربة مزيفة، ثم إلى الخمول أخيرا، كانت سلمى تتابع، كضحية لتمرّد غاية في العجز، السقوط المحتوم للضحايا، إلى حدّ التقهقر، إلى حضن الأم.

أقسمت سلمى عندئذ بعدم منح أي خيار لهذا السيرك الجنائزي، وأيّ ضمان يقيها التخوّفات المرضية السلفية أفضل من وضع الصحراء والأراضي الأخرى والبحر خلف هروبها؟ كانت تجمع كلّ قواها وتغرز أظافرها في راحتيها إلى أن ينبجس الدم وهي تردد: «لم أعد بحاجة إلى أدوار الضحايا». وإذا كانت كلمة «ضحية» تحدث بداخلها صدى غريبا فلأن سلمى كانت تعزيه إلى الخرافات إلى الطغيان العائلي والسلطوي. لقد كانوا يجرفون البلد بالسرطان



ويصنعون مهدا للأصولية البربرية.

يبدو أن الويسكي كان يؤجج سلمى دون أن يسكرها. قبلت هذا المساء بأن يكون فقدان الذاكرة هو الصمت الوحيد الذي تواجه به صمتهم. ولكن، أي طعم اصطناعي! إذا كانت قد أعفت نفسها كليا، هي المتمردة، من واجب فضح العائلة كلها، فإنها لم تشعر بأنها أقل يتما بسبب ذلك. لا يهمّ، سيمسح لها هذا اليقين في، هذا المساء، بالتماسك مع العار والجرم.

إنها وحدها في الغرفة المخصصة للضيوف. الآخرون يشخرون كلهم في الغرف المجاورة. أتنام الأم؟ ساورتها رغبة في جزء من الثانية في الذهاب لجرجرة أمّها، لإخراجها من فراشها، لأمرها بالمجيء في الذهاب للردّ عل كل ما اقترفته من آثام. ما الفائدة من ذلك؟ لن تعرف أكثر مما عرفته من قبل. على سلمى أن تهاجم نفسها.

ومع ذلك بقيت أمّها بكماء قدامها. كانت دائما هكذا. ألم تحصل هذه الليلة على البرهان الواضح؟ ألم تر نفسها وقد تحولت إلى مناجاة بعد سنين من الغياب، وبعد حقيقة أجليت بإيجاز. كأن الأمر يتعلق بتصريح ليس ذا قيمة معتبرة. كم هو الوقت الذي تكرّمت الأم بتخصيصه لهذه المواجهة؟ ربع ساعة؟ لا أكثر، إضافة إلى بلبلته بحكاية المجوهرات غير المناسبة، جهاز العروس الذي تركته لها سلمى في الصناديق. هذه الصناديق التي تحوّلت إلى حجيرات مظلمة للفتيات الأصغر سنّا. الزواج الفجائي، ثم العودة إلى البيت حيث يعشن خاملات في وضع الموات الأحياء الذي تسيره الأم. إنها تلغو أثناء اليوم مع البنات الأخريات، يتقاسمن العلاقات ذاتها، ونفس الحياة الكابية.



اكتفت سلمى بجملتين. ليس من النادر أن يكون الابن الضال ذاك الابن أو تلك البنت التي يخشونها أو يلعنونها.

هدأت سلمى وفكرت لحظة في مهاتفة ڤومي. نظرت إلى عقارب ساعتها، الرابعة ونصف صباحا. تركت هاتفها على مضض. سيكون لها متسع من الوقت للتحدث مع صديقها غدا وفي الأيام الثلاثة القادمة، أن تبقى هنا يوما وليلة لهو أمر يتجاوز طاقتها. لن يكونوا بحاجة إلى قتلها كما فعلوا مع اللقيط. ستنتهي بالموت وحدها.

غفت سلمى قليلا غداة شحوب الرمل. تؤكد ذلك مشاهد تخللتها كوابيس. تخطتهن الأم كلهن وجاءت لتضع صينية الفطور على الطاولة وأنواع من الفطائر المحلاة والمقليات... وجه الأم مغلق. من أي شيء يمكن أن تخاف؟ كل ذريتها حاضرة، مثابرة، مقيمة حاجزا حيّا، حاجزا مغنطيسيا بينها وبين سلمى.

خرج الإخوة من البيت وما زال أصغرهم نائما. تفرّق الأطفال بعد الفطور الصاخب. ذهب بعضهم إلى المدرسة، والتحق الآخرون بالأطفال وتوزعوا في الشارع قبل أن تطرد الجميع الحرارة الشديدة للظهيرة، وتفرغت النساء للأشغال المنزلية.

بقيت الأم هناك ترمق أكبرهن بطرف العين، اضطرت سلمى وأمها إلى الابتسام وقد أحرجهما الصمت والنظرات المتبادلة، وإذ وضعت سلمى إناءها الفارغ جانبا، أدخلت الأم يدها بين نهديها وأخرجت كيسا من القماش أغلق بشريط، فتحته وأخرجت منه الأساور السبعة، «الأسبوع» الفاخر الذي كانت تتقلده البارحة وقدمته لسلمى، اكتفت هذه الأخيرة برفضه. إنها من التعب بحيث لا تستطيع



أن تغضب، من صفاء الذهن بحيث لا تسمح لنفسها بإبداء الرأي. استعطفتها الأم: «خذيها، وإلا سأُغرى ببيعها يوم أذهب إلى مكة من أجل الحج، أعتزم الذهاب في العام القادم. أريد الذهاب إلى هناك قبل أن أموت».

توضحتها سلمى بانشداه. ولكن، ماذا تريد من وراء الإلحاح على حكاية المجوهرات؟ أن تخرج سلمى عن طورها؟ أن تحوّل مجرى الأسئلة؟ أم أنها بصدد إقناعها بأنها بحاجة إلى مال أكثر من ذاك الذي حصلت عليه؟ صحيح أن البيعية العائلية لها عذرها الحتمي، الخصاصة، لكنّ القيمة التي وهبتها إياها البارحة تكفيها لثلاث رحلات وأسفار أخرى إلى أقاصي الدنيا. أم أنها تعبر عن رغبة أم، شرعية في نهاية الأمر، في التخلي عن مجوهراتها لابنتها الكبرى؟ هل هي طريقة للتعبير لها بعد الاعتراف، أنهما أصبحتا أمّا وبنتا أكثر من أي وقت لآخر؟ هل ذكرت موتها محاولة مداهنتها؟ هل تشعر بالرغبة في العفو عنها؟

أصبحت للأم بغتة سيماء فتاة صغيرة ملغمة بالجرم وخرقاء. كان كل ما في كيانها وفي نظرتها يتجه نحو سلمى يناشد القبول. على سلمى أن تبدي هذه المرة عنفها كي لا تحضنها، هي التي جاءت لتفرض الحقيقة عارية سترجع دون أن تطلب الباقي. إنه لمن السهل أن ينقلب جلاد إلى ضحية. لن تتعانقا من أجل عفو متبادل، ولن تقلبا الآن معنى الهبات، سلمى هي التي أعطت دائما دون أن تتلقى أبدا. مع هذا الاعتداد الجموح الذي لا يطلب شيئا بتواضع، وخاصة



الحنان. حوّلت سلمى هذه القسوة إلى أفكار لتحمي نفسها من أية رأفة، لكنها لم تستطع منع نفسها من التفكير في إهانات أمّها طوال حياتها. هناك ذكرى تحاصر سلمى، ماتت جدتها من والدتها بعد ولادة أمها، أولى بناتها - الخالات لسن في الحقيقة سوى أخوات غير شقيقات - هل يجب التخمين في مفتاح آخر يخص علاقتها بسلمى، ابنتها البكر. لاحظت فجأة أنها سخيفة إذ اجتهدت في البحث عن عذر لأمها.

بدا لها قتل الطفل فجأة في معناه المزدوج: الفعل الأكثر حقارة الذي دفعت إليه والطريقة السيئة في تدمير الأمهات بقتل جزء منهن بإرغامهن على الإهمال أو على قتل لقطاء القبيلة.

سيقتلن إن رفضن ذلك أو يهجرن بأعجوبة، وإن رضخن سيغدون مجرد أشباح خاضعات لكل أنواع الإهانات والمساومات، هذا القصاص يستحق فعلا سجونا أخرى.

صورة المدية تلازم سلمى. فرضت نفسها لمّا جاءت صورة الجريمة لتفتح عينيها أثناء الاسترجاع المباغت للذاكرة، ولكن كيف تغامر لإقامة مقارنة عندما يكون وجها الأم والخالة باهتين أمام المدية؟ تكمن التباينات ها هنا، بداية من مبررات هذا الفعل. إنه ناتج، بالنسبة إلى المدية، عن الكبرياء لوحدها.

تحتقر المدية فكرة الألم إلى غاية الإضجار وتقتل لتنتقم من زوج ومن الأقوياء الذين يتحالف معهم، ألحقت بهم عذابا كبيرا، وكانت تفتخر بذلك إن ألم المدية لا يساوي شيئا أمام غضبها الآسر. لم تكن المدية تعرف الحدود، ولا التزامات الأم. حوّلت آثامها إلى انتصارات ووضعت نفسها فوق الحسابات، فوق الأخلاق والوضع



البشري بشكل عام.

وما زالت تبهر منذ القدم لأنها تتجاوز كل المعايير المشتركة وتتخطاها.

وحدهما الخزي والتهديد بالعار تبوآ القرار العائلي الخاص بالجريمة. لم تكن الأم سوى منفذة، خنقت الأم الرضيع خفية، وهكذا شوّهت سمعتها في عيني البكر، ولن تعرف أبدا منفى آخر، ما عدا توبتها، لا صلواتها ولا رحمة الصديقات والجارات تعرف كيف تقودها إلى التعاظم أمام هذا الفعل الذي جعلها قاتلة وضحية في آن واحد.

والواقع أن دور المدية يعود إلى البلاد كاملة، إلى الجزائر، هي التي حرّضت على العنف، على الابتزاز بهذا النوع من المتعة الهدّامة. هي التي قتلت هؤلاء ونفت الآخرين وأحرقت الرضع في الأفران، وتخلت عن أطفال آخرين بجروح فائقة الوصف، وهي مستمرة في تخريب نفسها بزحزحة نصف سكانها من النساء إلى درجة دنيا في نصوص قوانينها. «لن تنجوّ الجزائر إلا بنسائها!» هذا الروشم الذي يتكرر في فرنسا وفي العالم يهيّج سلمى. قبل ذلك بكثير غنت السيدة **الريميتي**[1] بسخريتها المعهودة: «الخير مْرا والشر مْرا». كانت سعادة وطلاقة في الاحتفال بما كانت تخجل منه النساء آنذاك: الجنس، الحب، السكر... ولا مجال للوضع وما يمكن أن يدفع إليه، كم يستلزم من **ريميتيات** حارات جدا لاجتثاث النساء من التشبه بالقدامى، من وضعياتهن الساكنة؟

(1) مطربة الراي الشهيرة.



بمقدور سلمى أن ترد على الريميتي كما بالقول المأثور الملائم: لن تنجو الجزائر إلا عندما تتجهز بقوانين عادلة وبعلمانية. عندما تبعد ظلامية البلد. عندما لن تكون مدارس الجمهورية أماكن يغرق فيها الأطفال في الظلام.

ولكن كيف نثق بكفاية ديمقراطية حقيقية، بتعليم نوعي يطوّر العقل النقدي، بالحريات والمسؤوليات التي تُنتج عن هذا للقضاء على مصدر الظلامية في الناس؟ حدث عنف كبير هنا دون أن تقتص العدالة. صدمات نفسية كثيرة ما تزال خبيئة، ما تزال مخفية.

هل الحضارات الكبيرة معفاة من الجانب المظلم الذي يلبد في الأعماق البشرية؟

أنقد سلمى صوت سيارة الأجرة التي توقفت أمام البيت. لن تقوم إلا بوثبة لتكون وحدها مع ڤومي. ارتمت الأم عليها، احتضنتها كما لم تفعل ذلك من قبل، وكانت تبكي في صميمها: «هل سترجعين؟ - نعم». ضمتها سلمى بشغف قبل أن تهرب وقد ضاق صدرها. قالت لها أمها وهي تغادر: «لا تنسيني!».

لم تحتمل منظر هذه الهوة، السماء. طأطأت سلمى رأسها، وإذ انطلقت السيارة ضاع نظرها في كآبة قريتها المولدية. لقد رأتها، وهي صغيرة، تفرغ تدريجيا، تتقلص وتنغلق. هناك أصقاع دكت عن آخرها وسلبت. لم يغير فيها أيّ شيء مجيء الاستقلال والتقدم. جعل عصر البترول الملتهب في شرق الصحراء نشاط مناجم الفحم في الغرب آيلا للسقوط، مصدر العمل الوحيد للمنطقة الصحراوية الشاسعة. لقد كانت قوة الجاذبية تمارس هناك، بعيدا عن البلد. سيسيليون وسردينيون ومالطيون وإسبانيون، مهاجرون هرعوا إلى



هذه البقعة من العالم حيث أكوام الأنقاض تخرج من الأرض وتزاحم الكثبان على الريح. لقد سعوا إلى التكاثر والانتشار وبدوا سلبيين ومسفسفين، حابطين، كإهانة لبهاء الرمال، طموحات إنسانية متفحمة لأنها تجاسرت على توقيع أثر الحب الفاجر للريح والمدّ.

خفّ الصرف الناتج عن الفصل الجماعي لسنتي ستين وواحد وستين بعد نزوح السكان اليهود والأقدام السوداء سنة ألف وتسع مئة واثنين وستين، وقد قنّع الركود ذاك الغليان الذي أحدثه الحصول على الاستقلال، وحيازة السكان المعدمين على الملكية العقارية التي تركها الفرنسيون سائبة. لكن نزيف القرية تواصل، وشيئا فشيئا هجرها الشباب وقواها الحية.

عندما خرج بعض السكان من متاهة القصر جهّزوا منازل، تغلبت رفاهية الكهرباء ودورات المياه والماء الجاري على الجمال الهندسي للدور الطينية، وبعد محنة البطالة العامة وألم استئصال أعداد كاملة من السكان من متاهة القصر وبعد محنة البطالة العامة وألم استئصال أعداد كاملة من السكان، استولت البشاعة على القرية.

انهد القصر الجميل الذي تم التخلي عنه، في حين غنغر بنيان شنيع المساحة التي بين أكوام الأنقاض والكثبان. انمحت كل التباينات. أنتج الاستقلال مسحا عرقيا لم يسبق له مثيل. لكنّ العدالة المزعومة لأبطال الحرب لم تقدم قطعة خبز كبيرة ولم تمنح بعض الحقوق المشوهة إلاّ لتمنع شعبا من التطلع إلى الحرية التي انتظرها طويلا.

انتهى كل شيء بالسقوط، بعد زوال الحظوة، في البؤس والعزوف. حتى أكوام الأنقاض تشهد بأن عواصف الريح الرملية



غدت غبراء، وبلون مبهم.

وبعد أربعين سنة، بقي المسنون والمعدمون جدا، أولئك الذين تخلت عنهم الأمة وهجرهم الأولاد، يختبئون في الأضواء الخافتة للديار، حتّى الإرهاب أهمل هؤلاء، لا توجد بقية العالم، بالنسبة إليهم، إلا على شاشات التلفاز، هي وحدها التي تفاصح وتبهر.

تراءى لسلمى فجأة أنها تعبر مقبرة للأحياء على بعد آلاف الأميال من الضمير البشري.

عين الدار، اسم واحتها المولدية. يحمل دلالتين، حسب طريقة نطق «الدار»: «البيت» أو «الضر». العين هي النبع، هل اشتق البيت والألم من النبع ذاته؟



قابلة البحر

رافقت سلمى ڤومي إلى مكتبه لتحتفظ بسيارته، لم تكن لها أية رغبة، هي المنهكة كليا، سوى الذهاب إلى البحر. نصحها ڤومي بالأندلسيات، سيمكنها قربها من السكنات والمحلات التجارية من البقاء معزولة في الشاطئ دون مضايقة، أما هي فتفضل الذهاب إلى الضفاف الخالية التي بلا عمارات، أما هنا فالأمر خطير، ليس لها خيار آخر.

منظر البحر وتدفقه يترعان وحدة سلمى ويمددان طعم ملذاتها، إن سمحت لها درجة الحرارة ستمشي، تمشي كثيرا والماء إلى الركبتين. هذه الملامسة السائلة تحيطها بتياراتها المائية وتنشطها. تستسلم لها سلمى كلما جهلت ماذا تفعل. تترك التيارات تجذبها، ما يدفعها أحيانا إلى الارتماء في البحر الأبيض المتوسط هو شدة القلق أو شدة اليأس، تعبره مسرعة، مأخوذة بفيضه، مشكاله يعالج الظلمات الداخلية لسلمى، يبعد الضغوطات. نبضات قلبها تتناغم مع ارتدادات الأمواج. الجهة الأخرى ليست مختلفة. وإذ تغرب الشمس على البحر تحس سلمى بشعور وقاد بأنها تشرق في قلبها.

عينا سلمى تتفحصان الأفق قبالة البحر. هناك، هو بيتها أيضا. افترت شفتاها عن ابتسامة عندما فكرت أنها ستكون في «بيتها» مهما كانت الضفة التي تقف عليها. «الهنا» و«الهناك» ينقلبان لتحديد حدّها الحقيقي، هذا البحر.

السراب الأكثر إبهارا.



كيف استطاعت سلمى، أثناء تجوالها الليلي، على شاطئ «العرض الكبير» في مونبلييه، ألاّ تفكر في الغرق المتكرر للمرشحين للهجرة؟ عندما تغمرها هذه الصورة تتفاجأ سلمى وهي تنظر إلى هذا البحر بارتياب. لماذا يفتح آفاقا للبعض وينفتح كقبر للآخرين؟

حبست سلمى أنفاسها عندما شرعت أخبار مصوّرة في عرض أحد هذه الزوارق التي يتقاذفها البحر محاولة عبثا تمييز الوجوه. كانت وجوها غامضة، عديمة الأشكال.

جماعة من الناس الذين أغرقتهم المصوّرات وهم أحياء، المصورات التي أصيبت فجأة بحسر النفوس التي تعتني بطمأنينتهم في وقت الغذاء.

عاد وقتئذ إلى ذاكرة سلمى تحذير معلمتها الأولى: «المدرسة هي الأمل الأخير للنجاة، للبقاء. لا تتقهقري أبدا!» كان الحلم «أملها الأخير للبقاء» منقذها الأكبر، هي الهرّابة الوحيدة. هل كان عديمو الحظ هؤلاء أقل اتحادا لاتخاذ بعض الترتيبات الجريئة بالنظر إلى قوانين العدد؟

تنقصها وجوه لتفتيشها حتى تستخرج منها أثر جرح ما، إصابة تحت القناع المبتذل للفاقة. أية شدّة أخرى، أكثر عمقا، تختبئ خلف عذر المسغبة؟ أيّ جور آخر لم يشتبه فيه إطلاقا؟ أية مآسي مطمورة جدا تحت أسرار العائلات التي جعلتهم يغرقون في عمق البحر؟

ارتعدت سلمى عندما فكرت بأن لا شيء يضمن لها، هي الأخرى، مستقبلا أكثر رأفة.

لن تنتهي الرغبة في الهرب من الفاقة، من الرعب، جاذبية العبور، من الإنقاذ والقتل، دون التمييز بين السراء والضراء في خط



الأفق. إنها مثل دوارة الرياح هذه الرغبة، تغير اتجاه مدّ المهاجرين تحت رحمة الثروات.

مرّ وقت كان فيه النداء إلى الهجرة من الضفة الأخرى، ومع ذلك لم يكن غرقى بهذا العدد. ابتسمت سلمى حين تذكرت اسم محطة الحمامات حيث توجد: الأندلسيات.

حملت معها كتابا وجرائد مع أنها تعلم أنها لن تقرأ شيئا. ما زالت مشوّشة بعد الذي عاشته لتستطيع ابتلاع أية لفظة. إنه يوم فاتر يختبئ فيه الشاطئ خلف الموسم. الضوء يستنفد قواه وينسج السماء والبحر بنسيج كله ذهبا وألقا.

انتبهت سلمى، ويداها مليئتان رملا، إلى أنها غادرت عين الدار دون أن تطأ كثيبها، لكنها لاحظت أنه لا يعقل الجمع بين رمل الصمت لكل هذه السنين، وبين الحطام الذي بداخلها، بيد أنها نظرت إليه بشغف من سيارة الأجرة في طريقها إلى بشار. الكثيب يبسط نتوءاته وقممه ما بين التجمعين. وفي أسفله يرسم الطريق حدّه الأسود عبر الأرض اللينة المتسعة، وأحست سلمى بعودة الهدوء إليها وهي تداعب بعينيها ترابه الصلصالي ورشاقة خطوطه.

كان هذا الحضن الرملي ملجأها إلى نهاية المراهقة، إلى غاية رحيلها من الصحراء. هناك انتبذت منذ أول هروبها المؤقت، وحلم اليقظة زادها الوحيد، ثم أصبحت تختبئ فيه لتقرأ. لم تكن الكتب الموجهة للأطفال تمثل قراءاتها المفضلة. اكتشفت سلمى من كلام صديقات القسم، من الأقدام السوداء، تلك المحظوظات من ضمن المحظوظات الأخريات اللائي لهن أمهات قادرات على سرد لهن حكايات، تلك اللائي كان حضورهن يكفي لإبعاد فكرة



النوم، اكتشفت من خلالهن النزعة الفرضية لهذه الكتب التي تهدئ. تركت هذه الكتب عندئذ لتهتم بكتب «الكبار»، هي الأرق «إنها صعبة بالنسبة إليك. لن تفهمي أيّ شيء». قالت لها أمينة المكتبة في أوّل الأمر، ولكن، لا يهم إن كان فك غرابتها يجعلها يقظة أكثر فأكثر.

تدرك سلمى الآن كيف كانت مجاورة الفرنسية مفيدة لها. لم تكن لغة الأم، وحدها لغة أجنبية ما تستطيع قبول انسلاخ سلمى وتكون مناسبة لها.

لقد لفت انتباههما التعامل معها فورا رغم الصعوبة، وأجبرها على تجاوز الدوار الجنائزي للعدم. أما النقص اللجي للحب فقد ألقت به في مدّ الصحراء. أنقذت سلمى المدرسة والكثيب والكتب من الرّق الذي تفسخ بفداحة، من القصر الذي يعج في دائرة مضايقاته وتقاليده، ومن الرعب الذي أبعد إلى النقطة العمياء للذاكرة، تحت ثقل الموت.

البحر هو الذي آلفها بإشعاعات آفاقه عشرين سنة من بعد، لقد غدا ضروريا إذ عبرته ووصلت إلى الضفة الأخرى، بعيدا عن الانغلاقات الجزائرية.

لقد خنقت سلمى، في ذاكرتها، ما لا يطاق.

مدّت سلمى يدها إلى رأسها وسحبت منه قبضة من الشعر. إنه يسقط، يسقط. بدأ مباشرة بعد أن استعادت سلمى ذاكرة الجريمة. هل يتوقف هذا الرعب قبل أن تغدو صلعاء تماما؟



الأسبوع الوحيد معها وحدها

حدّثت ڤومي حول الطاولة عنها، عن أمها، ماذا تعني أم بالنسبة إليها؟ تعثرت بهذه الكلمة وسكتت. يحدث لها الآن مرارا أن توقفها الكلمات، تلك التي لا تمثل بالنسبة إليها سوى أصداف خاوية. أليس هذا الجزء من الظلام الداخلي هو الذي يكشف لها عن تنافر نغماتها، عن حمولتها وبلبلتها؟ حاولت سلمى التعبير بصوت متردد بحثا عن الدقة، عما كان إلى غاية اليوم غير معقول، وممتنعا.

تكلمت عن نفورها العكر، عن تعاظلها أمام الحمل الدائم لأمها، بمجرّد ما تضع يبدأ بطنها في الانتفاخ من جديد. تفاجأت سلمى بعد ميلاد التوأمين، وهي تراقب بذهول أخرس قياس الخصر الذي أصبح أكثر فأكثر اتساعا، هل تحضن الآن ثلاثة توائم أم أربعة؟ ألن تنفجر من شدّة التمدّد؟ كانت تسترق السمع لحكايات الولادة: «ماتت واحدة، رحمها الله. ماتت أثناء الولادة...» كم من مرّة ارتعدت سلمى أمام هذه العبارة: «ماتت أثناء الولادة...» وهي تتأمل بطن أمها.

أعادت التفكير في إلزام طبيبة نفسية، إحدى معارفها التي تكنّ لها حبا كبيرا: «اكتبي هذا. اكتبيه وقولي هي»، ركزت بصرها على ڤومي وسألت قلقة: «أكتب؟» غمرتها فجأة ورطة الفعل كتب وتركتها تفكر طويلا، ضمّها ڤومي وحفزها على إتمام الحكاية.

استغرقت سلمى وقتا لتعود إلى رشدها وتكمل القصة لإرضاء لڤومي.



تلقت سلمى برقية أثناء الزيارة الوحيدة للأم إلى مونبلييه: «ستصل أمك إلى مرسيليا الجمعة 16 في منتصف النهار». لم يهتم أي أحد بموقفها. استنتجت بأن أمها مريضة جدا، لذا أرسلت بلا تحذير. إن الاهتمام بها في هذا الظرف يقع على عاتقها. لم تر سلمى أي سبب مقبول لهذا السفر سوى هذا. لا بدّ أن الأمر لا يتعلق بأزمة عاطفية تجاهها، منذ كم من سنة لم يلتقيان؟ نسيت سلمى الحساب.

لم يكن هناك هاتف في بيت الأم في الصحراء. مكلف جدا. أجابت سلمى ببرقية أخرى: «سأكون في مطار مرسيليا يوم الجمعة 16 في منتصف النهار». تدبرت سلمى الأمر لتتحرر الجمعة والأسبوع القادم. ولحسن حظها لم تكن لها مداومة في نهاية الأسبوع.

تعرّفت سلمى إلى أمها في أول الأمر من خلال هيئتها الثقيلة الحركة وسط حشد المسافرين. تابعتها بعينيها بانقباض في القلب وسط الموجة البشرية المتجهة نحو مركز الديوان. بدلت الأم الحيك الأبيض بجلابة رمادية. أكثر ملاءمة للسفر. لا بدّ أنها فعلت ذلك بعد نصيحة مسبقة. كانت الأسفار الوحيدة التي تعرفها، تأخذها مرّة واحدة في السنة إلى بشار، على بعد عشرين كيلومتر من البيت. مع ذلك يلزمها سبب عائلي لا يمكن تجاوزه، وبالنظر إلى حراسة الأبناء، فإن هذه المهمة تضايقها أياما من قبل.

رافقها بكر الأولاد إلى وهران وهي جالسة في الطائرة تحت رعاية زوج من المهاجرين متمرسين على الأسفار بين الضفتين، مثل طرد بريدي مزعج ونفيس وجب ضمانه إلى غاية الوصول.

كانت الأم تسيّر حياة العائلة كاملة وقد أغلق عليها في البيت بإحكام، أمّا خارجا فتصبح معاقة بالكامل.



تقدمت ما بين رجال الديوان مثل شبح، وإذ ثابرت على جعل النظر مثبتا على أقدام سابقيها، كما يحلو للنساء المتخلقات، فقد مرّت أمام سلمى دون أن تراها، لو لم تتشبث هذه الأخيرة بكمّها. أحالت نظرتها، إذ رأت سلمى، على ارتياح من نجا من خطر. لقد حلّقت فوق البحر! انسحب الزوج الرؤوف الذي رافقها باحترام بعد الإحاطة بها، مانحا العربة لسلمى.

غطت حماسة الشفقة لسلمى، هذه المرة، ما كان في عناقهما من تكلف. لم تبعد وجهها عن وجه الأم إلا لتحيط كتفيها بذراع حامية. كان اضطراب الأم جارحا. لا بدّ أن هذا الرعب هو الذي شد عينيها إلى الأرض. واجب تمالك النفس. شرعت سلمى في دفع العربة بيدها الشاغرة. لم يحدث أبدا أن بدا لها زمن المطارات المؤجل أكثر استبعادا. كانت تمشي وهي تضمّ أمها على أرض أخرى، في جنوب آخر. أية غفلة جعلت هذا «الهناك» يستطيع فجأة أن يدفعها إلى التواصل، إلى التلاقي؟ أن يبعدهما عن دروع البلد ومآسيه.

بدأت الأم تتحدث بنشاط: «كلهم يسلمون عليك... نعم، نعم، إنهم بخير. أنا أيضا، نعم». مرّت فترة صمت طويلة قبل أن تضيف: «جئت لأني سأزوج أختيك، الأخيرتين. وكما تعلمين فإن مداخيل إخوتك لا تكفي حتى لإعالة أبنائهم».

الأمر بيّن، لم تنتقل الأم هذه المرة، لم تتحدّ رعب البعاد، دون الحضور الضروري للأبناء، إلاّ لتأخذ من سلمى الأموال اللازمة لزواج ابنتيها الأخيرتين. ارتجالا، الضربة القاضية. وإذ قدمت من عالم حيث المراوغات تنتهي بتضييع خيط الحديث، فإنها تستحق التقدير لأنها ذهبت مباشرة إلى الموضوع. للمرة الأولى.



ارتسمت ابتسامة على شفتي سلمى عندما فكرت في المجمع العائلي الذي قرّر الغرامة التي يجب أن تدفعها للقبيلة، وفي ماسوشية الأم التي عينت نفسها حاجبة المصلحة، حاجبة مثيرة للشفقة حقّاً: مرتبكة خشية الضياع في هذه المغامرة المزعجة، أو من عدم الرجوع بسلام.

لم تغير فيها شيئا السنوات الخمسة عشرة التي لم يلتقيا أثناءها. عاد الزمان إلى مجراه الطبيعي في المطار. التزام أبدي.

لم ينتج القلق المشترك، الذي ألفته الأم وصدّته سلمى، ولو ينظم هروبها وتمردها أفضل من السابق. ارتخت الأم شيئا وشيئا شرعت في الحديث، إنها لتغدو مسهبة إلا لاستحضار حكايا ونوادر لا تمت بصلة لسلمى ولها. وإذ كانتا تمشيان في سهل **الكرو** حدثتها أمها عن أحفادها الذين لم تعرفهم سلمى بعد، عن أخواتها وجاراتها... وكانت سلمى تتساءل عن ردّ فعل الأم عندما تلتقي بصديقها لوران.

عبرتها موجة من السعادة الانتقامية لهذه الفكرة. إنها تعيش مع «كافر» منذ عشرة أعوام و «هم» لا يعلمون شيئا، ولمّا كانت مجرّد ممّونة أموال فقد احتفظت لنفسها بكنوز العلاقات العاطفية التي لم تقاسمها معهم بتاتا.

كل ما ليس له قيمة، ورأسمال لا يجب التعدي عليه، حريتها.

اكتفت سلمى بالقول: «إنه لوران». توقفت الأم برهة قبل أن تصافحه بحياء، وإذ لم تجرؤ فيما بعد على مواجهة نظر صديق ابنتها فإنها لم تتخل عن النظر إليه كلما استدار. بإلحاح ساذج ومؤثر. اهتمام خال من الإنكار أكثر منه انذهالا. كأن الأم تهتم بفحص جسد هذا الغريب وسلوكه محاولة الولوج إلى غرابة ابنتها. لتعلن النكث



بوعدها مسبقا بعد أن تدفعها إلى ذلك قوة غامضة أو عجز أساسي. توقفت عيناها على لوران عندئذ بنوع من التعبير عن النهم المبهم.

حضّر لوران الوجبة وسوّى الطاولة، وإذ تجاوز الوقت الساعة الثانية أسرع في تقديم الطعام. اللحم حلال، اشتراه لها خصيصا من جزار عربي من التخشيبة. **حلال**، كاشر، كان يردد مولعا بإعجابها ورغبة في إزالة توترها.

أعجبت الأم بهذا الفيلماني المليء بالأيدي والأرجل التي تختفي أحيانا في المطبخ وقد شدته الأشغال المنزلية ليحضر أحيانا أخر ويقبل ابنتها فاتحا، يشعث شعرها ويحضنها، وإذا كان لوران لا يتلاءم مع نماذج الرجال المثاليين، بالنسبة للأم، فقد أعجبها. كان ذلك بديهيا. بيد أنها لم تعترف بذلك أبدا، كما لم تسال سلمى عن السنوات التي عاشاها معا، ولا عن زواجهما، ولا عن الأطفال.

لم تقض سلمى عند أمها في الجزائر سوى يوم أو يومين، على فترات متباعدة، وإذ ترغب في العودة إلى الكثيب، إلى أماكن الهرب، فإن المعالم المتوحشة للطفولة تتغلب مرّة أخرى على واجب الإفلات من حبستهما المتبادلة. كما أن عليها العودة من حين إلى آخر لأخذ قياس، بل مغالاة كل ما لم يحصل بينهما لمواجهة الوحدة، ثم اعتراف القوة والعزيمة للمحافظة عليها في بعد أكثر فأكثر.

ولكن، ها هي الأم تنزل عندما فجأة، فارضة عليها هذه القسوة، هذا الإصرار على إسكات الأسئلة التلقائية التي تخطر ببال أمّ أمام ابنتها. متى تكلمنا بصراحة؟ متى قضينا وقتا مع بعضهما؟ لم يعملا طوال حياتهما سوى على تشبيك صمتيهما. صمت مدوّخ خلق مسافة بينهما.



إذا كان عليها أن تعثر على كلمة، على كلمة واحدة قادرة على تحديد الأم فستكون: أبدا.

لا تجهل سلمى بأن أغلب المغاربيين الذين يعيشون في فرنسا يمتنعون عن بعض السلوكات المتحررة عندما يستقبلون ذويهم الوافدين من البلاد حذر خدش مشاعرهم، ولتفادي إشاعة النميمة.

لأوّل مرّة سافرت الأم لترى ابنتها تعيش في بيئتها. لم تفعل ذلك حتى عندما كانت في هران. لذلك وضعت سلمى ظلا من الكبرياء كي لا تغش. لقد وعدت سلمى نفسها، في حقيقة الأمر، وفي النقطة التي وصلتا إليها، بتحويل الحضور المفروض للأم إلى لحظة من الحقيقة، اللحظة الوحيدة التي لم يقتسماها. لو أنهما فقط استطاعتا، في هذه الأيام المعدودة، أن تتآلفا وتقضيا ساعات أصيلة. إنها فرصة لإرغام الأم على اكتشاف ابنتها للمرّة الأولى، كي لا تتذكرها فقط عند الضرورة أو في لحظة جشع. لذا لم تتراجع سلمى عن تقبيل صديقها غير المسلم أمام أمها، ودق الكؤوس وشرب الخمر على الطاولة... ولكن، إذا تحولت السلوكات اليومية لسلمى إلى كبائر في عينيّ أمها فإن ذلك لن يقرّبهما حتما.

لكل واحدة منهما جريمتها وفقدان ذاكرتها.

انعزل لوران أثناء السهرة وترك لهما قاعة الاستقبال، وإذ التحقت به سلمى إلى الغرفة بعد ساعة، توقف عن قراءة الكتاب: «ماذا بعد؟ - لا شيء إذن. لا سؤال، لا عنك ولا عنّي!» ضمها لوران بين ذراعيه، مددها، احتضنها وجامعها ببطء وحنان. تمتعت ونامت ووجهها على قلبه. ذهل لوران. كانت تلك المرة الأولى التي يراها تغرق في النوم على قلبه وبتلك الطريقة. كان يجهل أن النوم بسرعة



المفتاح الكهربائي الذي يتمّ إطفاؤه، أصبح الهرب الوحيد الممكن للأرِق التي نصبت لها أمها فخا في بيتها. رأت سلمى من قبل، وهي مختبئة في حلمها، أنها طفلة صغيرة مسرعة نحو الكثيب، وإذ وصلت إلى القمة لفت جسدها ومحنتها في جوف الرمال. لم يدم القلق طويلا وقد امتصتها نعومة الرمال الرائعة، قد يكون إصرار سلمى هو الذي دفعها إلى الاستبطان، ولم تكن لها أية رغبة في تحمل اجتياح الصور المطمورة. جلست وانزلقت على الرمل بمتعة. كانت ابنة هذا الكثيب الذي التصقت به. غضت البصر عن فراغ الأفق المستحوذ، وداعب بصرها حنية الكثيب مستطعما ألوانه المركبة التي من العسل والعنبر. هنا انفجر فرح حياتها.

نفقات مقابل إغفاءات، عوّضت سلمى قلة التواصل بينها وبين أمها بدوامة من التنقلات، وخففت غياب الحنان بكل أنواع الهبات. رافقت الزائرة إلى جنوب التبني. وكان اكتشاف المدن والمناظر الطبيعية يلفت انتباهها، حاجبا وهن الرباط البنوي بأكمله.

بالنسبة إلى الأم، التي عادة ما ظلت محبوسة في البيت، فإن التفسح والتنقلات أخذت صبغة رحلة استكشافية لانهاية لها، كما جعلت الصمت أكثر احتمالا ومنحته وهم الشراكة... بحيرة سالاغو، داخل بلاد بيك سانت لوب، السيفين وضواحيها، كامرغ، إلى غاية التجار العرب في مرسيليا، بعد تجار مونبلييه. كم من مساومات؟ كم هي عشرات الأمتار من القماش البراق؟ كم من زخارف، من خردوات؟ أوعية أعلنت فجأة أنها ضرورية. اكتشافات ستفتخر الأم بها هناك في الصحراء.

مازحت سلمى أمّها، بسبب جلابتها الغريبة، بتناول الغداء في



أحد مطاعم الميناء القديم لمرسليا. بدت متكززة وعيناها ملتصقتان بالصحن، وثارت ثائرة سلمى: «عجبا، انظري قليلا إلى ما حولك! استغلي المنظر! هل يمكن أن تخبريني لِم أنت خجولة إلى هذا الحد؟» رفعت الأم بصرها وألقت نظرة متلصصة على رصيف المطعم: «لا يوجد ما أخجل منه، لا يوجد عرب ها هنا». انفجرت سلمى ضحكا، ولم تكد الأم تنهي تمتمتها حتى غرست وجهها في الصحن مجددا.

كانت الأم من التعب مساء بحيث نامت مباشرة بعد العشاء. لم يستطع تكلفها العنيد إخفاء إثارة مرضية. استغرقت سلمى وقتا طويلا متكورة بين ذراعي لوزان لتسترجع قواها.

كانت الأم، بعد أسبوع من نهاية إقامتها، متباهية بمواجهة الزواجين. أخذت معها حتى ما يمكن أن تجهّز به الاحتفالين: «هل أنت متأكدة من عدم مجيئك؟» لا، لقد كان التموين من الكفاية لتتقزز سلمى من مشاركتها في هذه المسخرة.

في الأسبوع التالي وكلت سلمى أمها في المطار إلى شابين قاصدين وهران. اطمأنت الأم للتلهف الذي أظهره هذان الأخيران للقيام بالمهمة، وبعد أن ودّعت سلمى وداعا غاية في الحياء، تركتهما يرافقانها بوداعة.

كانت سلمى تتقدم في الرواق الزجاجي ببطء، ذاك الذي سيفصلهما من الآن فصاعدا، عندما أبصرت الأم ترتمي على الحاجز وتلصق به وجهها ويديها بنوع من الاستغاثة المفاجئة. كأن وجودها مرّة واحدة في مأمن سلمى جعلها تعي وضعهما: ستذهب إلى الصحراء، بعيدا عن هذه البنت التي بلا أسرة. لن تلتقي بها بعد



سنين، وقد لا تلتقي بها أبدا.

جاءت سلمى مرتجة ووضعت يديها فوق يدي الأم، دمعت عيناها عند الاحتكاك البارد والقاسي بزجاج الرواق: ما كان يفرقها هي أمها يشبه تماما هذا الحاجز. كم بقيت شاشة السر المنتصبة بينهما قاسية جدا، ومتعذرا عبورها؟

توجه نحو سلمى شرطي حضر المشهد وخاطبها بنبرة مطمئنة: «وهران ليست بعيدة! إنها تماما في الجهة الأخرى من البحر...» ابتسمت له سلمى مكتئبة. كيف استطاع أن يخمن بأن المسافات الجغرافية لا شأن لها؟ «الجهة الأخرى»، بالنسبة إليهما هي الحب. هذا الجانب الحميم من الحياة حيث لن تلتقيا أبدا.

توقفت سلمى عن الكلام برهة، استرجعت أنفاسها ونظرت إلى صديقها بالكاد قبل أن تردف:

– كان مجيء الأم إلى مونبلييه قبل خمسة عشرة سنة... في سنة ألف وتسعمائة وتسعة وتسعين راسلتها طالبة منها إن كانت تقبل استقبالي مع لوران لليلة واحدة. لا قدم له فقط قريتي المولدية قبل التوغل بعيدا في الصحراء. أجابتني بأنه من غير المعقول استقبال الرومي بسبب الجيران والناس... لم تقل له البارحة كلمة واحدة، ولا كلمة، إنها لا تعلم أننا افترقنا منذ أربعة أعوام. هذا لا يدخل في صلب اهتماماتها، هذا كل ما في الأمر.

رفع ڤومي رأسه مبديا شعور من يعرف الكثير:

– ما زلت أفضل سلوك أمك المحكم على سلوكي المكبوح، أتصوّر أحيانا، عندما تنظر إليّ، أنها ترى جثة ميت، أنا أيضا لم تطرح على أيّ سؤال منذ أمد. تفضل تعذيب نفسها بالشك فيّ بدل قبول



اختلافي. مع أني رجل، «الابن» كما يقلن.

وافقت سلمى. حتى في العالم الذي يدّعي التقدم، هناك أولياء كثيرون لا يستسيغون جنوسة ابنهم، إلاّ كعاهة... أين العاهة؟

حيّرت سلمى سحنة ڤومي التي أثلجت الصدر بغتة، وأجاب صديقها بصوت عذب خفيض على نظرتها المتسائلة:

عندما كنت البارحة مساء، وجها لوجه مع أمك، تفسحت في بشار. رأيت هناك واحدة، ثم اثنتين، ثم ثلاثة، وأخيرا عدة نساء، فتيات، شرطيات، مسمّرات، القبعة ملولبة على الأهداب والمسدس على الرّدف... ما يجعل أكبر الذكوريين ينهارون... أو يخصونهم مدى الحياة. اللون الأزرق للبزة النظامية يلائمهن أكثر من اللباس الترقي الأسطوري. لا يجب الانزعاج من أي شيء، حتى في بلدك الذي في أقصى الدنيا، هناك شيء تبدل.



أنت تشغلين مكاني

مطار وهران. لم تجرؤ سلمى على الابتهاج سريعا وهي تستعد لأول مرّة للإقلاع في الوقت المحدد في طائرة الخطوط الجوية الجزائرية. ولأن الطائرة لم تقلع بعد فإن احترام دقة الوقت يحتاج إلى لإقامة دليل. تباطأت سلمى مبتعدة عن زحام المسافرين الذين يحملون جوازات السفر وبطاقات الركوب.

عندما دخلت إلى الطائرة تأكدت ثانية من رقم مقعدها. هو بالتأكيد ذاك الذي تحتله هذه المرأة الأربعينية الجميلة ذات السروال والسترة والشعر المرفوع إلى الأعلى. استضاء وجه الغريبة إذ أبصرت سلمى: «الدكتورة مفيد!» تمتمت سلمى بعد هنيهة بعد نداء القلب هذا «صباح الخير، أظنك تشغلين مكاني. - أوه، عفوا، فقدت رشدي». فتشت المرأة في حقيبتها وأخرجت بطاقة ركوبها. كانت المضيفة هناك وطلبت: «أريني إياها... مقعدك إلى الجانب يا سيدتي». غيّرت المرأة المكان، ولمّا جلست سلمى، التي لم تزل مرتبكة، قالت لها جارتها: «أعرفك لأني ممرضة في المشفى الذي تشتغلين فيه بمونبلييه. أنا سعيدة بالسفر معك في هذه الرحلة».

استنفر سلمى صوتها وسحنتها وحركاتها المحمومة. ابتسمت لها ولاحظت أن المقعد المجاور ما زال شاغرا.

بدأت الجارة تدق نقالها بعصبية. هاتفت سلمى ڤومي وأخبرته بأن كلّ شيء على ما يرام. «أخيرا» تنفس صديقها الذي ما زال ينتظر في محيط المطار. ثم أغلقت سلمى نقالها بعد وداع أخير.



غرقت عينا جارتها بالدموع بمجرد أن أقلعت الطائرة. استدارت سلمى نحوها مضطربة. تأملتها الغريبة بنظرة حادة: «خفت أن لا تنطلق. أن يقبضوا علي. وفي سني! لا يمكن أن تتصوري سعادتي بمجرد أن رأيتك. قلت في نفسي إنك لن تتركيني وشأني في حال وقوع مشكلة...».

تتكلم، تتكلم، تتكلم وتبكي. تتزاحم الكلمات في فمها وترافق شلال الدموع. عمر فتيحة خمسة وأربعون سنة. وهذه عودتها الأولى إلى بلدها الأصلي بعد تسعة وعشرين سنة من الغياب. لكن، أية عودة! إحدى الناجيات بأعجوبة أيضا. أدى عنف أمها وإخوتها إلى هروبها من الجزائر مراهقة. المخابئ، المهن المتواضعة وتيهان طويل في أوربا. كلّ التقلب الذي يدفع إليه القنوط الأعظم. هذه الرغبة الشرسة في تمزيق المعاناة، في محو نكهتها، بهذه الطريقة الوحشية في قطع الطريق وعدم سلوك الدرب نفسه أبدا، بالذهاب أبعد فأبعد، إلى غاية السعادة. ثم أبعد فأبعد، إلى غاية السعادة. ثم اللقاء برجل، بفرنسي، فالحب.

استقرت فتيحة آنذاك في جنوب فرنسا للهرب من صقيع الشمال والعيش في أضواء الجنوب. عادت إلى الدراسة وأصبحت ممرضة. إنها ترسم أيضا.

بعد ثلاثة عقود من الصمت اهتدى إلى أثرها أحد إخوتها. رسائل طويلة قبل المكالمات الهاتفية التي لا نهاية لها. المضايقات والمساومات المقنعة بطلب النجدة. مات والد فتيحة ووالدتها دون أن تلتقي بهما.

الأخ الذي يحاول التمسك بها مضطرب جدا. طلّق مؤخرا.



يحدثها عن بنات الإخوة والأخوات مع أنها تجهل وجودهن. يلح على التأكيد على الحس الأمومي لأخته، يضع الإصبع على الجرح بفن شرير مستهلك.

تهتم فتيحة بابنيها إلى حدّ الغيرة، الأول في السابعة عشرة من عمره والآخر في سن التاسعة. لقد كبرا دون أن يعرفا أيّ شيء عمّا بتر منها لتبقى على قيد الحياة:بنت، «لقيطتها» التي اختطفت هناك.

على عكس زهية، فإن فتيحة سليلة إحدى عائلات الأعيان. كان أبوها رئيس بلدية تيارت. لا يغير الوضع الاجتماعي، والحال هذه، أي شيء في المعاملة المخصصة لنزوات الفتيات المتمردات. لم يستطع «ذووها» خنق الطفل أو إغراقه أثناء الولادة. وضعت فتيحة في المشفى. أمّا «هم» فكادوا يقتلونها. عرضت على سلمى جرحا في اليد: «خنجر... لا أدري من أين جاءتني القوة لليّ يد الذي أراد طعني». فلتت منهم فتيحة وتخلصوا من لقيطتها بشكل آخر. أخذتها امرأة عاقر بعيدا عن أعينهم. نحو منطقة أخرى، ورفضوا الكشف لفتيحة عن هوية المرأة.

ما زالوا متمسكين بالصمت بعد سنين، قاطعين أي وهم ممكن يجعلها تصلهم، وأمل العثور على البنت. بحثت عن النسيان في العائلة، عن الصداقات التي كوّنتها بعيدا عنهم.

هذا هو الصدع الذي يرغب الأخ في خدشه، تركت فتيحة نفسها تتداعى من فرط المكالمات الهاتفية، عاد حينئذ لمحاصرتها كل الحنين والندم اللذين أرادت التخلص منهما، وانتهت فتيحة بالسقوط.

عقدت الصلة ثانية بفكرة العثور على البنت، الجزء الآخر



منها. كانت ترغب كثيرا في أن يعيش ولداها مراهقة أكثر تسلحا، أكثر انشراحا، فكرت أيضا في بنات الأخوات والإخوة اللائي لم تلتق بهن بتاتا. ألسن في وضعها بالضبط، قبل ثلاثين سنة؟ هذا إلزام بداية من الآن، تريد أن تذهب إلى هناك.

حضّرت نفسها طويلا من قبل، ملأت حقائبها الكبيرة بهدايا لعائلة لا تعرف ثلاثة أرباعها. قلبها ينبض ما دام التأثر يضيّق عليها. إنها تجهل إلى أين هي ذاهبة.

انتظرها الأخ في مطار وهران وأخذها إلى تيارت، مدينتها المولدية في الجنوب الشرقي من وهران. إنه يعيش هناك. في الطريق، وهي مندهشة من وطء هذا التراب مجددا، مشت فتيحة دون أن تحترس. كانت تسخر من التهجمات التافهة لأخيها التي أرجعتها إلى أثر رعونة الغيرة، رفضت أن تعير اهتماما للمتحرشين ذوي النية السيئة، إنها تعتقد أن سنها تحميها، وضعها كزوجة شرعية، ولو كانت زوجة كافر، وأم ابنين كبيرين، ابني أخته هو، فضائل الزمن... لم تعد تحسب إيجابياتها.

دلّ تصعيد دسيسة الأخ على الوصول إلى الوجهة: حجز فتيحة بمجرد عبور العتبة، صادر بطاقاتها الشخصية، بطاقة القرض، أموالها وتذكرة العودة. بإمكانه الآن أن يبصق في وجهها باستهزاء تم شحذه منذ وقت طويل لأجلها: «انتهى اللعب الآن!» من حسن حظها أنه لم يفتشها، كان نقالها في أحد جيوب سترتها، تبعت ذلك مسارة مثيرة للشفقة بين الأخ والأخت الغريبين عن بعضهما.

لم يتوقف الأخ، المدمن الخمر، ذو الأسلوب الثقيل، على النظر إلى فتيحة شزرا، مكررا بأنه بحاجة إلى زوجة. امرأة تستطيع تلبية كلّ



حاجياته، يؤكد على كلمة حاجياته بتباه لا يدع مجالا للشك.

لم تعترف فتيحة بالهزيمة، وحاولت مداهنته بالحيلة لتنتزع منه معلومات عن ابنتها. لم ينتظر أخوها من محاولات الصلح هذه سوى اللحظة المناسبة للذهاب بعيدا في مطالبه.

بهتت فتيحة وأغلقت على نفسها في غرفة، وخشية أن يكسر الباب إن سمعها تهاتف، أخبرت نصيا زوجها في مونبلييه وإحدى صديقاتها التي تقطن في وهران، ومكثت في اتصال معهما.

كان أخوها يصرخ من شدة السكر ناصحا إياها بالتوجه إلى «كل شيء ممكن»، الحصة التلفزيونية الجزائرية - التي نسخت عن الحصة الفرنسية - إن كانت تريد العثور على «لقيطتها!».

انتاب فتيحة شك أمام هذا التعتيم: ربما باعوا ابنتها، ربّما باعوها لعابر لا يعرفون عنه شيئا، عابر يكون قد احتاط جيدا للبقاء مجهولا. لقد أفقد صوابها غياب أية أمارة عن ابنتها.

بعد ساعات نام أخوها وقد تعتعه السكر وحلّ محل الهذر المضلل شخير منح فتيحة إشارة، هي التي بقيت في وضع المتربصة اليقظة. خرجت من جحرها والأخ نائم على ظهره. تدلت حاشيتا سترته المفتوحة على البساط من جهات البطن، وجاءت فتيحة خلسة لتأخذ بطاقات الهوية وبطاقة القرض وتذكرة الطائرة.

يجب أن تكون مفاتيح شقته وأموالها في جيوب السروال. لا يمكن أن تخاطر بإيقاظه. الليل مظلم، لكن صديقة وهران بانتظارها في السيارة على بعد خطوات قليلة. استولت فتيحة على حقيبتها اليدوية وهربت من النافذة للحاق بها، لقد تخلت عن حقائبها وكل أغراضها الشخصية.



استمعت سلمى منذهلة من هذه الحكاية، التي تبرز، مرة أخرى، الوحشية القذرة لبشرية مفصومة. من حسن الحظ أن هناك صداقات تساعد على المقاومة. وصرخت فتيحة باكية: «للمرة الثانية أترك بلد المجانين هذا بلا حقائب، ممزقة، مجرّدة من كل شيء. لن أعود إليه ثانية. لو أبصرت هيئتي المشبوهة في عيون شرطة المطار وأنا بلا أمتعة. خفت أن يقبضوا علي بدورهم...» كانت سلمى من الغضب بحيث لم تسمح لنفسها بأن تقترح عليها: «لا بدّ أنك سترغبين في يوم ما في العودة مع ابنيك وزوجك».

حاولت فتيحة مرارا تقديم تاريخ سفرها. ما زالت تخشى ردود أفعال أخيها. كان على استعداد لشراء ذمم شرطة المطار من أجل مساعدته، وقد يستعين بخدمات أحد الأشرار للقبض عليها هناك. إنها لا تثق في أيّ كان، ما عدا ثقتها في صديقة وهران. انتظرت إقلاع الطائرة و «الخوف في البطن»، إلى أن برزت لها سلمى...

أسندت سلمى وجهها إلى النافذة المستديرة مرتبكة. البحر في الأسفل أزرق شاحب، خففه العلوّ. عادت إلى ذهن سلمى أوّل جملة قالتها لفتيحة: «إنك تشغلين مكاني». كم هو عدد هؤلاء الذين يحتلون في العالم أماكن ليست لهم؟ هذا المكان المعلق ما بين محيطات الفارين. هذا المنفى المحبوب حتى عندما لا يكون فيه أي شيء مذهّب، لأن فظاعة الغمّ الذي نتركه خلفنا، بعيدا عن المأساة العائلية، لا يمكن أن تكون له نهاية أخرى سوى سعادة كلّ اكتشاف، كل لحظة من الوحدة. تتعلم الهرّابات تذوّق ذلك حتى في لوعة الاقتلاع. ليس من أجل الرسو، بل من أجل الانتشاء، كرحيل مفاجئ لأحلام الخلاص. لن تستطيع كل الاندفاعات و«الأعضاء



الموهومـة» للمبتورات أن تفعل شيئا أمام الوعي الحاد بالحرية الذي يأتي على كل الأحزان.

كلما استمرت فتيحة في سرد حكايتها توطد نوع من التوازي في ذهن سلمى. إن لم تعان أبدا من عنف إخوتها فلأنها منذ مراهقتها بدأت تحيل نفسها وتعيلهم. فكّرت كثيرا بأنهم كانوا ملزمين بابتلاع كبريائهم من أجل التصالح. يكفيهم تبديد القوت في إبراز عضلاتهم أمام زمرة الأصدقاء. أن نعيش أسرة عالة على امرأة، على فتاة؟ كان أمرا غريبا في القرية، وغير مقبول. ومع الوقت اقتنعت سلمى بالأمر: مالها مالهم، لم يكن عمل امرأة، في نهاية المطاف، سوى شكل آخر من البغاء في الأزمنة الجديدة، شكل مقنع بنفاق مهنة محترمة، وقد أسند لها إخوتها، سماسرة البغايا الصغار هؤلاء، هذه الوظيفة مدى الحياة.

وبموت أبيها أصبح مدخولها أحسن ضمان لرفاهية الأم التي لا تخاطر بالخروج من البيت كامرأة شريفة جدا. وبدلا من اكتساب ودّهم اشترت سلمى صمتهم وطمأنينتها.

قرّرت سلمى أن تقطع عنهم المؤونة في منتصف سنوات الجامعة: تخلوا عن الدراسة الواحد تلو الآخر وتكاسلوا مع الأم، لم تعد سلمى ترى أي سبب للاستمرار في إنهاك قواها من أجلهم. عليهم أن يعلموا بدورهم، لم تعد قادرة على حرمان نفسها. استمرت في إرسال بعض المال إلى الأم من حين إلى آخر. ولكن الأمر لم يعد متعلقا بصبّ راتبها كاملا، وآليا، كما جرت العادة. ولم يجرؤ أحد على أن ينقل لها الفضيحة الناتجة عن قرارها.

كان لقاؤها بفتيحة في الوقت المحدد، تقديم صورة أخرى عن



مكائد العائلة وتمتين احتياطات سلمى. يحدث دائما تقريبا أن ينال ولد عقابا محتوما، أو أن يكون طعما للمكائد الأكثر وصولية.

كانت سلمى تقول في نفسها، وهي تستمع إلى فتيحة، بأن الانحرافات العائلية - كما في الأنظمة القمعية الأخرى - تنتهي بإنتاج حدّها الخاص بها، كما ينزع تكديس المآسي إلى الاختلال.

حاولت سلمى أن تتمالك نفسها خشية إلحاق ضرر آخر بفتيحة بعد أن تملكتها رجة من الضحك المتواصل. استسلمت سلمى وتنازلت لمشهد هذه الأخيرة التي أدركتها العدوى.

تحدثت المرأتان باستخفاف مستعاد، وبالتداول، عن وقائع التروس المضحكة، الجشع، تكلف الحياء، الرياء، العلاقات الباطلة... ثم سكتتا فجأة بعد استحضار مثير.

لكنهما تعرفان، من الآن فصاعدا، كم شحذتا نفسيهما أمام ابتزازات أميهما. إنهما مدينتان للخلاص الثاني لأنهما أصبحتا امرأتين، كما هما اليوم. من المفارق أن بقية الإخوة هي التي تدفع أغلى ثمن كما يبدو: حياة جامدة. أمّا هما فقد فلتتا من العشائر، من الجماعات، من الانكماشات، من التصلب. دون إنكار شيء.

انحنت على نافذة سلمى المستديرة ونظرت إلى الشاطئ المتناهي القرب. كان الحماس الذي تمتمت به: «إنها فرنسا، بلدي!» يدعو إلى الاعتقاد بأن سفرها إلى الجزائر كان بمثابة كاشف عن ارتباطها بفرنسا، بقيّمها العلمانية وقوانينها العادلة.

التصقت فتيحة بمقعدها من جديد، أسدلت جفنيها وتمتمت بثبات: «يجب أن أرجع إلى الجزائر لأحاول العثور على ابنتي، لن أذهب لزيارتهم، هم، سأوكل أحد المحامين وأطلب مساعدة



الآخرين، المعارف».

وافقت سلمى. إذا كان هذا التلاقي العائلي فاجعا، فإن مراجعة النفس أمر جوهري، لقد ابتدأ الآن رحيلها ما بين فرنسا والجزائر.

زوج فتيحة وولداها ينتظرونها في **مارينيان**. عادت إلى البكاء بين أحضانهم. بيد أن القهقهات ما زالت هناك تهيّن. تبادلت سلمى معها أرقام الهاتف وتواعدتا باللقاء من جديد. وغادرت سلمى المطار ورأسها مليء بفراق الأم، ها هنا عقب أول زيارة لها.

الرياح الشمالية تدوّم في سهل **الكرو** وتزيد من حدّة الضوء، وكانت سلمى، المختبئة في سيارتها، تحاول قياس سرعتها بهجوماتها على الهيكل: «مئة، مئة وعشرون كيلومتر في الساعة؟».

مبتهجة بغضبها ويداها ملتحمتان بالمقود، مددت سلمى ذراعيها وتمّطت آخذة نفسها طويلا، ثم وعدت نفسها: سأعود إلى الصحراء في الشتاء القادم. سأبقى هناك أزيد من أربعة وعشرين ساعة، وسأجعلها تتكلم، أمّي.




مكتبة
الفكر الجديد

لا قطرة واحدة من حليبها

في ألف وتسع مئة وتسعة وتسعين اشتعلت سلمى رغبة في أخذ لوران إلى الهضاب العليا، منطقة جدّتها وأسلافها الرحل، قبل الالتحاق بصحرائها المولدية، ومع أن هذا الأخير ظل بمنأى عن عنف الأصوليين، كيف كان لسلمى أن تجهل بأن الربوع التي وجب اجتيازها كانت مصابة؟ وأن الزوج «المختلط»، لوران وهي، يخاطران بحياتهما؟ وإذا كانت لا تجهل أي شيء عن هذا، فإن رغبة الذهاب إلى هناك لم تكن إلا لتزداد. أسهمت هذه الرغبة، بنوع من الدسيسة، في الاغتيالات التي أدمت البلد منذ سبع سنين. وكانت الرغبة الجامحة في الطواف في أرض الأجداد تبعد الخطر، والحاجة إلى العودة إلى المناظر الطبيعية التي أحبتها، كتعويض عن النقص، تحّفز سلمى. لطالما حلمت بعبور الهضاب العليا مع لوران كمحبة، سهوب الحلفاء التي تندى لأبسط هبة ريح وتوزع الموجات إلى مرمى البصر.

الأراضي بلون أحمر داكن، مظهر الحلفاء أزرق مائل إلى الأخضر يصفيه ضوء بلوري منحوت، إنه يبدر سرعة الأحصنة، تصورتها سلمى، برأسها المليء بحكايات الجدة عن نزهات الفرسان، هامرة والمنخر موسع وقد نفد صبرها بانتظار أن تنطلق والشكيمة مرخية العنان. وفجأة، وقع الحوافر، العدو السريع وأثر الغبار الأرجواني.

كانت الهضاب العليا تهب سلمى، باستمرار، هذه النشوة



الباهرة، هذا الشعور بالعودة إلى ميادين الأسلاف الرحل، نساء ورجال بلا آثار.

وكان ضوءها الفريد يبدو لها نسيجا من نظرات الأجيال، هذه النظرات التي تأملت الآفاق نفسها من قبل.

كانت طويلة، طويلة الطريق المستقيمة على مسافة أربعمائة كيلومتر، بداية من مخرج خاصرة الأطلس، كأنها معلقة في السماء، وكانت الساعات تتمدد وتمضي قبل أن تنمحي في أزلية الصحراء.

لم يكن رفض الأم استقبال سلمى رفقة صديقها هو الذي جعل لوران وسلمى يتراجعان عن زيارة الجزائر، بل الأخطار المحدقة بهما، أن يتقاذف الاثنان، دون الانتقال إلى الهضاب العليا، ودون شاطئ البحر في قلب الصحراء في الطائرة، فذاك أمر لا أهمية له في عيني سلمى.

قرّرا في النهاية الذهاب إلى المغرب، أقل خطورة، جرّت سلمى، التي يتعذر إصلاحها، صديقها لوران إلى وجدة، حصن الفرع الحضري للعائلة. عائلة الأم. لم تذهب سلمى إلى هناك سوى مرة واحدة، في ريق الطفولة.

استولى عليها فجأة قلق أخرس. جاء توافق ليستقر في بالها، كان السفر الأول مباشرة بعد «موت» ابن زهية. أزيل الوقت من رأس سلمى وشرعت تبحث في الذاكرة. تتذكر أن جدتها الأبوية كانت تستعد للتوجه إلى وجدة. أصرت سلمى بإلحاح على الذهاب معها، أحدث رفض والديها شعورا بالخطر جعل سلمى تنخرط في غضب لا مثيل له. صعقت الجميع! قدمت لهم، هي الخرساء عادة، حجة أخرى عن جنونها بعد تطوافها الليلي في المقبرة وفي البعاد.



ها هي سلمى تستعيد فزع اللحظة، رعب نظراتها المشتبكة في مبارزة عجيبة، الأم وهي، وهذا الشعور بوشك الانهيار في حالة عدم السماح لها بالذهاب. تحققت من هذا الذعر للتوّ، فهمت اللحظة أن محيطها على دراية بأنها شاهدت. شاهدت كل شيء. وبأنها ليست مغفلة، هي نفسها لا تدرك ذلك. اختبأت في الريح الرملية، هي التي كانت تنزوي من قبل في زاوية البيت الأكثر أمنا بمجرد بداية الهبوب. كانت تنظر منبهرة إلى السرعة التي تمتص بها الرمل هذه الرشقات، مستولية على السماء والأرض، وإذا كانت هذه الأخيرة تلزمها غلق عينيها، فإن رعبها كان يثير فيها سعادة شبيهة بسعادة إحدى الهرّابات.

تغير كل شيء في سلوكها مباشرة بعد أن رأت. وإذا كان بعض أعضاء الأسرة، وعلى رأسهم الأم، لهم بعض الحجج التي تجعلهم يعتقدون بأنها بلهاء، فإنه يبدو أنهم يتمنون من كل أعماقهم أن تكون كذلك.

كانت رغبتهم في الاستعفاء، وفي التأكد من أن «شرفهم» لم يلطخ، على بعد فضيحة وشيكة.

ألم يخشوا لحظة واحدة من أنها ستذهب لتذيع في عائلة وجدة كلّ ما سعوا إلى إخفائه؟ أليس سكوت سلمى عن هذا الموضوع - الذي لا يمكن ربطه إلا بسوء فهم الوضع بالنظر إلى صغر سنها، ما داموا بعيدين عن تعريض ذاكرتها للشك - هو الذي أوصلهم إلى عدم الارتياب وإلى الطمأنينة؟

مكثت سلمى محترسة، مستعدة للدفاع إلى غاية ركوب القطار مع جدتها، لم تهدأ ولم تهنأ إلا لحظة انطلاقه، واخترعت لنفسها وقتئذ آلاف الأفراح، كانت تلك طريقتها في مراوغة القلق.



ما زالت سلمى ترى، أثناء السفر في هذا القطار المتعرج السير، البطيء، ما بين الصحراء وشمال المغرب، عبور الحدود، عوالم خيالية بعد الكابوس، إحدى أجمل لحظات درج حليّ الذاكرة، هدهدة القطار، البدو، عرب الحاضرة، اليهود، الأقدام السوداء، السخيف، الفظ... حتى خشونة المعاملات والأوضاع تسهم في شعرية اللحظة. تسترجع سلمى كل السحر كلما ظهر قطار في فيلم وسترن على الشاشة، العسكريون الفرنسيون في هيئة رعاة البقر، البلديون في هيئة الهنود، والمناظر الطبيعية نفسها.

انبجست فجأة محفزات الرحلتين وإقامتهما لتتطابق في ذهن سلمى. سلمى هي التي هربت من أمها في السفر الأول، أما في الثاني فإن الأم هي التي لم ترغب فيها وفي «كافرها» أمام محكمة الجارات والقرية. وفي الحالتين ذهبت سلمى إلى البيت المولدي للأم، محاولة فطريا أن تقترب من حياتها عندما كانت صغيرة، بأحاسيس متباينة، باندفاعات وإدبارات، بكل حدّة الهمجية الخليقة بالكائنات الجريحة.

علمت في وجدة، وهي صغيرة، أن الأم «ليست لها أم». فكرت في هذه العبارة كثيرا دون أن تعرف ماذا تفعل بها. أخرجها من ارتباكها ظهور «أم وجدة»، أم زهية وحليمة، زوجة الجد الأمومي، لماذا لم تكن هذه السيدة الجميلة الشقراء الطيبة هي جدتها الحقيقية، كانت سلمى تحبها كثيرا، تطمئنها معاشرة هذه المرأة وتؤاسيها، لقد تبنت كل واحدة منهما الأخرى.

شرعت سلمى في الضحك إذ تذكرت صورة هذه المرأة الطويلة التي لم تكن ملفوفة في الحيك. كان وجهها وجزءها العلوي مكشوفين، وكان طرفا الحجاب متدليين على الظهر ويتموّجان خلفها



في شكل عباءة شفافة، كانت تبرز من المدينة المتاخمة لمزرعة الجد خفيفة المشية، حافية القدمين، في حين كان بابوجان رائعان يعتليان رأسها.

كان الجد، الكلف بها دائما بطبيعة الحال، يلوّح بعصاه نحوها مومئا غضبه، ممتنعا عن القهقهة: «بنت الكلب، اشتريت لك البابوجين لانتعالهما، وليس لتزيين الشعر!» وتتفاخر: «على رأسي للحفاظ عليهما جيّدا، وعلى قدميّ أيضا. إنه لشيء ممتع أن أمشي حافية القدمين». إنها رشيقة وفائقة المهارة، وتدرك ذلك، هي التي تستخف بالكلمات العاطفية.

لابنتها البكر، الخالة زهية، جمال أكثر غموضا. قدحت سلمى زناد الفكر محاولة فهم ما يميزهما. من أين جاء إلى جدة وجدة هذا المجد الأربعيني المفحم؟ ما زالت سلمى صغيرة لتتبين منه نضارة الحب.

كانت سلمى تلقي عليها ذات مرة مقطعا موحى. وكانت هذه الجدة تتأملها مندهشة قبل أن تصيح فرحا: «لكن لسانك لسان امرأة، أيتها الصغيرة، هؤلاء المغتابون يعتقدون أنك ستصوتين بدل أن تتكلمي!» توقفت عن دعك خبرها وحكت لها: هل تعرف سلمى أن أمها لم يكن لديها حليب أثناء ولادتها؟ وأنها أوشكت أن تموت جوعا وهي رضيعة؟ يجب القول بأن العائلة في الصحراء كانت تعيش حياة من الفاقة الكبيرة. لم تنقذ من الموت إلا بإحسان الخال بلال. اشترى هذا السخي عنزة لأولياء سلمى حتى يتمكنوا من تغذيتها. وكانوا كلهم يتباكون حول الصغيرة: «ستثغو هذه الصغيرة بدل أن تتكلم». حبست سلمى نفسها أمام هذا الإيضاح، أكان يمكن أن



تتركها تموت؟ ولا قطرة حليب؟ وبعد تفكير لم تجد في الخصوصية ما يكدّرها، قبل أن تفطم الأم الأول جاء طفل آخر وتنازع على ثدييها الكبيرين كوسادتين، الثديين اللذين يسيلان. الأم بدينة حاليا، يفوح منها الحليب، سلمى لا تحب الحليب، وخاصة رائحته.

اكتشفت سلمى أمام حقل الجد أشجار الخروب التي لم تذكر الأم، إلاّ بنوع من الحنين، فصوصها التي كانت تستنشقها، قضمت سلمى أحدها وبصقت الثمرة للتوّ، كانت منفرة لأنها طحينية وحلوة.

لمّا رجعت سلمى إلى وجدة، بعد عدّة عقود، لم تتعرف إلى أحد هناك. لم يقاوم من هيكل العمارة سوى صف من ثلاث غرف. وحل محل الحقول حي ملتصق بالمدينة. ما زالت أشجار الخروب ها هنا. لكنها جذمت لإجلاء نوافذ الواجهات، نزعت سلمى خرنوبة من جدعة فنن، تأثر ريقها بمساخة حليب قبل أن تأخذها إلى فمها. وضعت سلمى القرن على لوحة القيادة بانقباض وملل، وبقيت هناك شهورا بعد عودتها إلى فرنسا، مثل مخلب متفحم.

ماتت كل النسوة، ما عدا الأم: الجدة الأبوية، بعد سنة أو سنتين من الرحلة، جدّة وجدة بعد سنين، وتبعتها ابنتاها.

عندما مات والدها كانت سلمى في السادسة عشرة تقريبا. لطالما وقعت فريسة حزن واخز كلّما فكرت فيه. عادت إليها الذكرى بإلحاح منذ البارحة، في شكل احتجاج يتعذر سماعه. كما لو أنه يرفض تهجيره. إنه ينتمي بدوره إلى تاريخه. تأتأت: «بابا!»، أبي، كما لو أنها ترغب في القبض على خياله.

كان الوالد ذا شخصية. كانت سلمى تندهش غداة عودته من المنجم، الفم أسود والحدقتان تبرقان كعقيق اليمان، تنتظر بشغف



أن يغتسل لتدنوّ منه، وفي النهاية تبتسم لها عيناه الفحميتان اللتان تعبّر نظرتهما على كلّ العاطفة المكبوتة، يكفيها ذلك، وبمقدورها العودة إلى تطوافها وحيدة.

مرّة وقد توترت العلاقات بين الأم والأب، اختبأت سلمى لتلاحظهما، كان الأب يشوّر ويصيح، لم ترد الأم، كانت سحنتها مقطبة، وأخيرا، وعندما تمتمت ثلاث كلمات، أخذ الأب غلاية وضربها بها، وقبل أن يضربها ثانية تدخلت سلمى ونظرتها مصوبة نحو الأب. كانت في السادسة أو السابعة من العمر، أمّا هو، الذي كان يرتعد غضبا، فقد كانت له كل القوة الوحشية للطبيعة. بقيت سلمى ثابتة، دون أن تتأخر خطوة واحدة، ودون أن تحيد بنظرتها عنه. استغرق الأب وقتا طويلا للتحكم في النفس، ثم استدار لمغادرة المكان.

ارتدت الأم حيكها وخرجت من البيت، ثم من القصر، تبعتها سلمى إلى الخلاء، وانهارت بعيدا عن الأنظار. كانت تشهق أكثر فأكثر، وحزينة لأنها لم تجد في يوم ما أحدا يدافع عنها. قالت سلمى في سرها، لكن الأم ليست قادرة على الدفاع عن نفسها. لا تبدي أية مقاومة. أكان ذلك ناتجا عن الجبن؟ أيرجع إلى سطوة خضوع القرون؟ لن تنسى سلمى الكآبة الممزوجة بالنقمة التي جمدتها على بعد أمتار معدودة من بيتها. وإذ كفت الأم عن البكاء ووقفت لتعود إلى القصر، سبقتها سلمى، تأكدت من اجتيازها عتبة البيت قبل أن تهرب من جديد.

وإذا كانت قد كشفت عدة مرات عن شقاق، عن غيوم كامنة، لم تر سلمى والدها يرفع يده في وجه أمها مرّة أخرى. بحضورها على



الأقل، لكنها لم تكن دائما هنا. كانت سلمى تحب أباها من بعيد، مع بقائها محترسة، وكان يحبها كثيرا بدوره. هذا النوع من الحب الذي تلجمه اللياقات وقسوة الدنيا.

يعود تغير موقف أبيها منها إلى حلمها. أصبح يحتقرها بغرور كان مخصصا للأم إلى ذلك الحين. بمجرد ظهور أي شك أحيانا، وكانت سلمى تستعد لتشن عليه حربا أكيدة إذ نوى تزويجها. وجاء الموت ليأخذه في تلك اللحظة. وإذا كان ذلك الألم قد جعل سلمى تتيقن من أن لا أحد يستطيع إبعادها عن الدراسة لتزويجها، أو للبقاء هنا، فإن ذلك لا يمكن أن يمثل أبسط التناقضات التي واجهتها، لكن الغمّ كان من عتيّا بحيث لا يمكن لهذه القناعة أن تتحول إلى شعور بالراحة.

أصبحت سلمى، في السنة التالية، حارسة في داخلية ثانويتها. لم يحدث أن احتلت هذا المنصب أية فتاة من بشار. كما وجدت نفسها، قد اقترحت في آن واحد، عماد الأسرة... وأصرت حينها على إعفاء نفسها من الذهاب إلى «بيت أمها».

وإذا كان موت الأب قد جعل مناخ الانسداد بينها وبين أمها يشتد أكثر فأكثر، فإن اكتشاف استقلالها المالي جاء ليعطي شرعية لكل الاحتياطات التي اتخذتها. تساءلت مرات عما إذا كانت والدتها متأسفة على رجُلها. من حقها أن تشك في ذلك عندما تتذكر النظرة المزدردة التي كان يحتقرها بها أحيانا. انقبض قلب سلمى وقد اقتنعت بشكل مبهم بأن أمها أسقطت عليها هذا الخوف الناتج عن التبعية والإهانات. عوضت سلمى أباها بتولي النفقة العائلية. وقد أسهم هذا في نسج هذه العلاقة الغريبة بين المرأتين. علاقة فظة، بلا أيّ حنان.



الصحراء المحوّلة

انتفضت سلمى لأولى رنات الهاتف. الفياقة تشير إلى السادسة صباحا. لن تشتغل اليوم وقد وعدت نفسها بالنوم إلى الضحى، إنه صوت الخال، وتملكها الخوف بغتة: «صباح الخير سلمى،.. أمّك، توقف قلبها، ماتت هذه الليلة، الله يرحمها. ندفنها في نهاية الصبيحة. تعازيّ...».

استقبلت سلمى هذه الكلمات وحيدة في ظلام الغرفة. ولما قطعت المخابرة الهاتفية أشعلت قنديل السرير وبقيت جالسة في سريرها مدّة طويلة. الرأس فارغ. مدّة طويلة، وتجوّف الوقت بغتة.

هذه هي المكالمة الثانية من الصحراء بعد ثلاثين سنة من إقامتها في فرنسا. ترجع المكالمة الأولى إلى ثلاثة أسابيع تقريبا، إلى اليوم الموالي لعيد الفصح. الصوت المتكلف ذاته للخال. وقع لها قبل قليل حادث متعلق بالأوعية الدماغية، فالج شقي تعافت منه خلال النهار. وصرّح لسلمى طبيب مشفى بشار هاتفيا: «لن تكون هناك عواقب. لكنّ قلبها ميؤوس منه». وإذ بدأت الأم تتعافى، قررت سلمى تأجيل سفرها. عاد إلى الصحراء، من كل جهات العشيرة، الأعمام وأبناء العمومة وأبناء وبنات الإخوة والأخوات. نوت سلمى التوجه إلى عين الدار في نهاية يناير، عندما يكون الآخرون قد أخلوا المكان، تمنت كثيرا لو استطاعت أن تكلم أمّها، معتقدة أن هذه النوبة الصحية قد تحرّر كلمتها. كانت تريد أن تقنعها بالعودة إلى مونبلييه من أجل فحص القلب، ما يساعدها على تكييف الأدوية، لكنه كان



من المستبعد أن تحتمل، مرّة أخرى، جشع العينين الملتصقتين بها - علقتان حقيقيتان. والحال أنها لم تجد أيّ عذر، سوء استدعاء أمها.

كان يجب التفكير في إلغاء طلب استيراد الأدوية من الصيدلية. تصورت أن تنقل ما يكفي لستة شهور من العلاج. ندرة المواد في الجنوب تمس ما هو ضروري. «في أي الأيام نحن؟»، تساءلت سلمى ببلادة. الاثنين، السابع عشر من يناير ألفان وخمسمائة. هذه العادة في دفن الموتى في اليوم نفسه.

قامت سلمى، حضّرت القهوة وشربتها واقفة. حاولت حجز مكان إلى وهران، تصرفت كالإنسان الآلي. كل رحلات الأسبوع مليئة: «إنه العيد يا سيدتي!» زمجرت موظفة الخطوط الجوية الجزائرية وقد استشاطت غضبا، كيف يمكن أن نستيقظ يوم العيد بنزوة الذهاب إلى الجزائر في الساعات القادمة؟ أليست صعوبة الذهاب إلى البلد هي التي حتمت عليهم الاستعداد شهورا قبل الوقت؟ كشفت سلمى عن التبكيت من نبرة المرأة، العداء الحاد تجاه المهاجرين المحكوم عليهم بالضلال مسبقا. لم تفكر سلمى أصلا في الاعتراض بهذا الاحتجاج: «سيدتي، لقد ماتت أمّي قبل قليل!».

مهما كان الأمر فإن الدفن سيكون صباحا. وإذا كانت سلمى لا تستطيع الحضور، فإنه من المتعذر عليها البقاء هنا. عليها أن تذهب. ضروري. الذهاب رغبة تتقوّى، حماسة من نفاد الصبر المطلق الذي يجرف الكآبة، يخادعها كما الجرم وينتهي بمحوها. سلمى معتادة على ذلك، لا علاقة لهذا الترحل الدائم للمنفيين بين بلدين. هؤلاء ينفصلون عن رسّو، وهذه ليست حالتها.

نظرت سلمى إلى ساعتها: الثامنة وعشرون دقيقة، استيقظ



ڤومي وقال: «حضّري حقيبتك. سأهتم بالطائرة. الأمر أسهل هنا في وهران، وإلى بشار كذلك».

استغرقت سلمى وقتا طويلا، وقد ارتاحت، لتدرك حجم الدموع التي تبلل وجهها. فائض طفح ببطء ثم انتشر. كم من مرّة صاحت سلمى: «لن أذرف دمعة واحدة يوم وفاتها»؟ ليس فقط عندما رفضت الأم استقبالها مع الرومي. ليس فقط عندما طلبت، كدين، أموالا طائلة لتزويج ابنتيها دون أن تكترث بما يحصل لها. لكن سلمى على مسافة ما يشبه التناقض. الدموع تسيل رغما عنها وتغرقها. كانت سلمى لا تدرك أنها يمكن أن تسيل هكذا، هادئة وناعمة. تجيء في صمت وتغطي العار والتمرّد معا.

حرّر الإعلان عن الموت ألما كبت منذ عهد طويل لأنه شائن. كانت سلمى تضع، بحركات بطيئة، الثياب في حقيبتها المفتوحة على السرير أكثر مما تنظمها. والحال أن براءة الطفولة المغتصبة هي التي عادت إلى هذا الانهيار الداخلي.

ما زال ڤومي على الخط: «إن لك تذكرة باسمك في شباك الخطوط الجوية الجزائرية في ماريينان. عليك أن تكوني هناك في الحادية عشرة وثلاثين دقيقة على الأكثر. اطلبي فلانا. هناك مشكل حقيقي بالنسبة إلى رحلة بشار. تمّ تحويل كل طائرات الصحراء باتجاه مكة، الحج محتوم. سنرى ذلك بعد وصولك».

لم تتساءل سلمى عن الطريقة العجيبة التي تحصّل بها على تذكرة طائرة في يوم العيد. إنها تعرف الأسرار المغلقة «لخطوط إن شاء الله». ضبطت الحقائق الدينية في ذهنها مع وقائع اللحظة. عيد الأضحى، الخرفان المضحى بها، مكة... بقي فكر سلمى مفروما،



مفجوجا، وقالت: «الصحراء المحوّلة... كم تمنت الأم أن تذهب إلى الحج. ماتت في عيد الأضحى. هل كان بمقدوري إنقاذها لو أني ذهبت من قبل؟» لا شيء يؤكد ذلك. ما كان بمقدورها هناك أن تلجأ إلى كل التقانة التي تملكها هنا. قد يكون ذلك ممكنا في وهران.

لكن عين الدار تقع على بعد ثمانمائة كيلومتر إلى جنوب وهران. «هل عجلت بموتها إذ حدثتها عن الجريمة؟» هزت سلمى كتفيها باستخفاف وردّت على نفسها: «إنك تمنحين لنفسك أهمية لم تمنحها لك أبدا. وكنت ستتفاديها على أية حال. أنقذي على الأقل نفاقك الشخصي!» أغلقت حقيبتها، أخبرت الزملاء، وهاتفت الصيدلية لإلغاء طلب الأدوية قبل أن تأخذ الطريق تلقاء ماريينان.

قلصت احتياجات مكة الرحلتين الجويتين اليوميتين ما بين وهران وبشار إلى رحلة واحدة، يوم الخميس. عندما كانت سلمى طالبة كانت هناك رحلة يومية. يجب القول إن مناطق شاسعة وفقيرة وجدت نفسها رهينة دولة مركّزة.

رفضت سلمى بشدة اقتراح ڤومي بمنقلها في سيارته. سيشتغل بعد غد، ثم إن السير ثمانمائة كيلومتر في الذهاب كما في الإياب، وفي يومين، أمر منهك جدا. أخذت تذكرة ذهاب إلى بشار قبل مغادرة المطار. سترى هناك كيف ستعود. كانت معجبة بقضاء يومين مع صديقها، أن تصل متأخرة فإن ذلك لا يعنيها، أو أنها كانت تمتنع كثيرا على تلويث العبارة.

ستسمح لنفسها، بعد الذهاب، بنوبات البطء وتهرب إلى أحلام اليقظة، تلك هي سلمى. لم تعد الأم موجودة على أية حال. هي التي هربت هذه المرة، وإلى الأبد.



أخبرها ڤومي في الطريق، ما بين المطار ووهران، بأن رشيد وزينب، زوجا من الأصدقاء، موجودان في بيته. لقد ذهبا إلى مكة قبل شهر، بعيدا عن حفل الاستقبال الكبير للعيد. بذخ لا يقدر عليه إلا بعض الموسرين. من وقتها وبيتهم في سيڤ مقر لموكب لانهاية له من الناس الذين يأتون للتبريك.

انهار رشيد وزينب لفكرة تدفق حاد في العيد. لهذا قدما للاختباء عند ڤومي. دون استبعاد فكرة قرار قضاء العيد مع هذا المقاوم الذي له أعذاره في تجنب تحقيقات الاجتماعات العائلية الكبيرة، كما أن فكرة السماح لنفسيهما ببعض الانحراف عن طقس ما بعد الحج ليست فكرة مستبعدة. وبقدر ما هما وحيدان، دون الابن والبنت اللذين ذهبا للدراسة في بريطانيا، بقدر ما هما بحاجة إلى إقامة مأدبة فاخرة مع الأصدقاء، كما في أيام الكلية سابقا. «إلاّ أن رشيد وزينب كانا بشوشين حقا، وليسا متحمسين مغشوشين، وكان العيد أقل همومنا شأنا»، قالت سلمى متهكمة، مصدومة من ذهاب هذين الاثنين إلى مكة.

استقبلت سلمى روائح يوم العيد بمجرد انفتاح باب ڤومي. منذ كم من سنة لم تشتم مثل هذا المزيج في أية جهة؟ «مذ كانت مع أمها». منذ ذلك الوقت، نعم. كانت سلمى، وهي صغيرة، تهرب لئلا تحضر التضحية بالخروف وغليان التحضيرات المتنوعة التي تملأ الجوّ وتجعله نتنا.

تتقدم سلمى ومنخرها يرتعش، تميّز الروائح واحدة فواحدة. رائحة الدم المنتنة، روائح الكروش والأمعاء التي تم تنظيفها للتوّ. مقاومة رائحة المادة الدهنية لجلد الخروف المحروق - جمر



الكانون الذي ما زال محمّرا، ذاك الذي شووا عليه رأس الخروف وقوائمه - تضاف إلى ذلك نكهة الطهي في مرق الطماطم المنتعشة بالكمون والحمص بطبيعة الحال، رائحة **الملفوف**، ومشابك الكبد المغلفة بالثرب. رائحة الطاجن التي تجمع القرفة والكراوية والزنجبيل والكزبرة، صحيح أنه كان يحدث لسلمى أحيانا أن تعدّ الأطباق الأكثر سهولة، وليس كل هذا دفعة واحدة.

أيقظت رؤية الحيوان الذي ذبح في البيت هذه الغريزة اللاحمة التي لا يمكن إشباعها. لم تكن ضرورات الحياة التي كانت تقدم سابقا، سوى ذريعة. لم يغير قدوم الثلاجات في الأمر شيئا. إذا كانت تضحية يوم العيد مرتبطة بإبراهيم، فإن سعار الاستهلاك المتزامن لكل أجزاء جسد الحيوان يرجع حتما إلى شعيرة وثنية.

بعد أن فتشت في الرائحة الكريهة للمصارين، تثابر الأيدي الخبيرة على تحويل ذلك إلى أطباق من الطعام الأكثر تكلفا.

أليست انقباضات المعدة ناتجة عن انفتال الجوع؟ لم تتناول سلمى أي شيء مع القهوة هذا الصباح. هل لها علاقة بذكرى أيام العيد عند الأم؟ يجب أن تعترف سلمى في محكمة التلبس بالهذيان بأن القضية تتعلق بالأمرين مرتبطين.

عناق بين زينب ورشيد الضائعين بين التعازي ومظاهر الصداقة، ارتبكت زينب معتذرة: «عندما هاتفت ڤومي، كان الرجل الذي طلبنا منه نحر الخروف قد فعل ذلك. نهضنا باكرا جدا ليكون لنا متسع من الوقت لتحضير كل شيء في الصبيحة، قلنا حينئذ...».

قاطعها ڤومي: «دعينا من هذا. كم من مرّة قلت لكما بأن سلمى ستستمتع بتذوق أطباق لم تتناولها إلا نادرا». وافقت سلمى بابتسامة



مطمئنة إياهما.

اختفت عبارة رشيد المتأسفة كمثل السحر. عانق سلمى بعين جذلة مشيرا إلى المعي الكبير، المحشو بكرش الثور، بالأرز والبقول، الذي سيتم طهيه: «أنا الذي حضرت **العصبان**». أضاف شريد لاحقا بعد أن فتح قنينة نبيذ **معسكر**، ودون التخلص من هيئته المزّاحة: «مكة للإيمان ونبيذ معسكر للكبد. أتمنى ألاّ أنتظر إصابتي بتشمع لأشرب النبيذ في بيتي يوم العيد، مع إدانة عامة. أمّا اليوم وقد أصبحنا **حاجين**[1] فقد أصبحنا ملزمين بالمجيء من أجل الاختباء عند ڤومي لتناول بعض الشراب. تتحدثين عن بركة!».

لم تكن سلمى تتصور بتاتا، وهي خارجة من بيتها صباحا، أن يوم وفاة أمها سيكون أول فرصة لقضاء أوّل عيد منذ وقت طويل. نوعا من الحج إلى مذاق الطفولة، مذاقها هي التي ماتت ليلا، هي التي توجد تحت التراب في هذه الساعة. بدت الصدفة لسلمى فجأة مزاحا شديد النذالة يلح على التلهّي على حسابها. كادوا يلاحظون ذلك عند الإعلان عن الفالج الشقي لأمها، عند الموازاة التي أقامتها ما بين حادث وعاء المخ لدى الأشخاص الذين هم في سن معينة، أولئك الذين يحتفظون أحيانا بآثار خطيرة، إعاقة، وما بين المعادلة التي اخترعتها لتحديد الفقدان الجزئي للذاكرة أثناء الطفولة: «حادث حيوي للذاكرة». لكنّ التحوّل طبيعة أخرى بالنسبة إليها، أصبح ذهنها بعيدا بمجرد ملامسة الإيحاء. لاسيما أنها لا ترغب في تمديد المناجاة التي دفعتها الأم إليها. هذه المناجاة المسائية الطويلة في العتمة.

(1) الذين حجوا إلى مكة.



ألم تكن تريد الهرب من وسواس الذكريات منذ الطفولة؟

استعدّ الأصدقاء الأربعة للخروج عصرا. اندهشت سلمى عندما أبصرت زينب تعقد بأناقة وشاحا حول رأسها. وإذ التقطت زينب نظرتها وضعت يديها على أذنيها وتلعثمت: «أظن أن بي بداية التهاب الأذن... - هكذا، ما دام عليك أن تفعلي ذلك من الجهتين؟!» أضحك الرجلين الرد اللاذع لسلمى. تركتهم زينب هناك وتوجهت نحو السيارة متضايقة.

ارتخت زينب بعد لحظات من الصمت داخل السيارة وشرحت لصديقتها: «الوشاح لبعض الوقت، فقط، واجب احترام الحج. علامة من علامات الاحترام للاستعمال الجماعي تحديدا. إنه إجمالا أمارة من أمارات وحدة الشعور. لم تتنكر للحرية المكتسبة بعد نضال كبير غداة السنين الجامعية. كانت مستعدة للموت من أجل مبادئها عندما كان مجرّد عبور الشارع برأس وساقين عاريين معناه الإعلان عن الانتماء إلى جهة ما. كان لزينب هذا الصوت الشبق الذي تعرفه منذ أمد، ذاك الذي يمنح علامة ورع في مرافعتها.

تحدثت عن رعبها خلال العشرية الدموية التي مرّت بها الجزائر - هذا الخوف العديم الاسم من الرجل الذي تقاطعت معه - أو الذي يمشي خلفها دون أن ترى وجهه - الذي قد يغرس الخنجر في رقبتها. مرّة وقد تأخرت ابنتها عن العودة، أسرعت زينب إلى الثانوية ووجدت الأبواب موصدةً هاتفت صديقات البنت مضطربة. افترقت المراهقات في الطريق، تعلمن عدم التسكع أبدا. أي رعب! هناك تفاجأت زينب بتضرعها إلى الله. وإذ ظهرت ابنتها أقسمت وهي تتنهد مطمئنة... المقدس مراهنة أساسية لا يجب التخلي عنها



للظلاميين وحدهم.

فُرضت شعائر الإيمان على زينب خلال سنوات الارتياب العام، خلال التمزقات العميقة للنسيج الاجتماعي، وللأسرة الواحدة أحيانا: «كان علي أن أشعر بانتمائي إلى هذا الشعب. أن أحس ذلك بقوة. أو كان علي الذهاب للتخلص من الخوف الذي في العمق». سكتت زينب لحظة شعورها بارتعاد صوتها، ضمها رشيد بين ذراعية.

لا تشك سلمى لحظة في أن هذا الحب الذي عاشاه منذ مقاعد الكلية هو الذي ساعدهما على مقاومة خراب البلد، ثم إن هذه القبعة الخفيفة المعقودة على الجبهة ليست سيئة. ثمّنت وجه زينب الدائري الجميل، رشاقة الجيد. لا علاقة لهذا بالبزة الأصولية.

ولكن، إذا كان الشعور بالانتماء، في هذه الحال أيضا، لا يكتسب شرعيته إلاّ عن طريق الدين، فإن ذلك يدل، بلا ريب، على إخفاق جيلهم وعلى تخلف البلاد.




مكتبة
الفكر الجديد

ألم الأم

هناك العم جيسون، زوجته، بناتهما، بنات أعمام الأم، الأخوات... جزء كبير من القبيلة يحيط بسلمى في المقبرة. هرع أطفال القرية بحثا عن عطايا. قدّم لهم برتقال تم شراؤه في الطريق - كانت الأم مولعة بالبرتقال» - وبعض القطع النقدية، وكانت ورقة نقدية معتبرة تنتظر الحارس الذي يتحين دوره على مسافة محترمة. لكنه دنا تدريجيا من فرط رسم أنصاف الدوائر ما بين القبور.

سلمى تحب هذه المقبرة الملتفة في سفح الكثيب، تشرع الأرض في نسج درجات من البنفسج الأرجواني والأمغر وتطويها في جثوة مباشرة بعد الانتفاخات النحاسية الأخيرة للريح. تستخرج شواهد القبور، السمراء أو القرمزية من حفر الديماس. لا أثر للإسمنت أو الإسمنت المسلح الذي يخدش تناغم الألوان.

كانت سلمى تعزّ سلام هذا المكان في صغرها. الكبار هم الذين كانوا يتسببون لها في غارات القلق، كانت تهرب وقتها من طنين البيت الذي لا حدّ له، من خلية القصر باتجاه حدائق الوادي الزرقاء، ثم تتسلق إلى قمة الكثيب، وكانت تجيء أحيانا لتحلم وتلعب ما بين الأموات، هناك حيث حضن الكثيب والأرض له علامة مقطّعات الرمال المتوهجة والإرغاء المعتم للقبور، مثل رعشة جامدة إلى الأبد.

قرفصت سلمى أمام قبر الأم، غرزت أصابعها في التراب وتمتمت: «أمي، لقد جئت. إني هنا». تركت هذه الكلمات في فمها



مذاق الرمل، مذاق الاحتقار واليأس واعتدادات الهرب والتيه الواعي وتفاهات أخرى.

بقيت سلمى مدة طويلة ويداها في التراب، صامتة وحزينة. حزينة كما لم يحدث لها من قبل.

أعربت سلمى وهي تغادر المقبرة عن رغبتها في الذهاب إلى القرية قبل العودة إلى البيت. انعطاف لاستنفاد الألم وحمولة الشجن لتتمكن من مواجهة أمواج تعازي الجارات وأصدقاء العائلة، لم تتوقف أصغر أخواتها عن البكاء. هي لم تهجر أمها سوى ستة شهور خلال خمسة وثلاثين سنة. مدّة زواج عابر. مدّة الحمل وضياع وظيفتها كسكرتيرة. كان زوجها يرفض أن تشتغل. أدت إلى بيت أمها في وسط هذا الحمل ولم تقم في حياتها بأي شيء آخر.

طلبت مرافقة سلمى شاخرة شاهقة. وافق الجميع أملا في أن يكون حضور البكر قادرا على التخفيف من كربها.

الكرب معد. مشت سلمى بسرعة للتخلص من كل هذا الكلام المهيّج، توقفت أختها عن التمخط. فرضت السرعة الفائقة لسلمى على أختها الصغرى جهدا لم تتعود عليه حياتها المسيجة ووزنها المفرط. تقاطعتا في الطريق مع أحد أصدقاء أبيهما، وبعد الكلمات العرفية حملق في الصغرى بأمر موجه إلى سلمى: «هذه، خذيها معك. لا تتركيها هنا». «هذه» أم لبنت عمرها ثلاثة عشرة سنة. فتاة صغيرة وجميلة اتفقت الأسرة جميعها على أنها نسخة من خالتها سلمى: «كتومة، هرّابة، متفوقة وحازمة. ستذهب بعيدا». كبرت المراهقة من دون أب، وهي ترفض رؤيته. إنها الأب... لماذا تحمل سلمى عبئ هذه الأخت؟ لماذا لا تهتم بها الأخرى التي تعيش مع الأسرة، تلك



التي «يشبه ابنها أبناء الأعمام في كل شيء، وسيم إلى درجة اختلاس القلب، لكنه تافه»؟ أو أحد الإخوة المحتاجين؟ ما لم يمنع كلا منهم من إنجاب أربعة أطفال. ليسوا أقل من سبعة. ولا يوجد في خصيتهم منيّ أكثر تنبت منه ذريتهم الأخيرة. حافظت عليهم **ماما** متحدين في الفجاجة نفسها، وهاهم مثل صغار الأيل المساكين يبحثون عن أمّ بديلة.

تأملت سلمى برزانة إخوتها وأخواتها الذين يتقدمون نحوها وهم يتبادلون نظرات عدائية. هم في منافسة وهي في وسط خططهم، في دائرة من المؤامرات التي تركت شاغرة بذهاب الأم. لا بدّ أن الأولاد مؤثرون. وكيف تستطيع حماية نفسها من فكرة مساعدة هذا أو تلك؟ لكنهم يعيشون كلهم معا، أو قريبين جدا، وعددهم ولا مسؤوليتهم مبطلان.

عادت إلى ذهنها عبارة ڤومي المتعلقة بالأشقاء: «لم تكن لكم أمّ واحدة». ماتت الأم وبقيت بينهم ها هنا. ليست الأم ذاتها. لقد شكلت نظرات الآخرين إليها، وعلاقة البكر بهذه المنطقة. لقد حوّلت طفولتها إلى هروب طويل ومتّنت رفض الإنجاب.

لم تكن لها أم أبدا، ولن تكون أمّا أبدا.

فهمت سلمى بغتة إلى أين تقودها خطاها. إلى الملاح القديم، بيت **إيمنا**، إيمنا التي تمت فرنستها **بإما**. استولت على سلمى إحدى الذكريات، ذكرى من الروائح والأغاني. عادت إليها من النؤى، من ريق طفولتها في الأدغال. كان طواف الفتاة بجانب الحواشي الأولى للكثيب إلى غاية يقودها عين الطير، واحة على بعد كيلومترين من واحتها. أسرتها أغنية في نهاية الضحوة بعد عبور تخوم القصر نحو



تخوم الملاح الفاصلة.

جمّدت الفتاة القوة السحرية في بداءة الأمر، ثم انجذبت نحو المكان الذي جاء منه الصوت. كان صوت امرأة. خرجت من بيت مطل على مقطعّات الكثيب، وبدت فجأة ربى الرمال الذهبية كأنها منعدمة، ما عدا مسرح مهدى إلى هذا العزف الموسيقي الأندلسي.

اكتشفت سلمى الرّاوية عند وصولها إلى الباب. لا شيء يضاهي كمالها سوى صوتها. كان جسمها البدين يجسد ترانيم اللحن وغنائيته أحسن تجسيد.

كان الوشاح النيلي المعقود على جبهتها عصابة للرأس يشد كتلة الشعر الثقيلة التي تتدلى على القفا ومنبت الكتفين مثل خوذة سوداء. كانت جالسة في الفناء قدّام كانون متوهج، وحينما أبصرت المرأة سلمى ارتسمت ابتسامة على شفتيها دون أن توقف غناءها، ودون أن تخرجها من نشوتها.

بقيت عيناها المثبتتان في الفتاة تمرران مشاعر من التعقيد والتماسك بحيث خفت على سلمى. لكنها ستؤثر فيها بشكل يتعذر محوه. لم تتوقف المرأة عن الغناء إلا حينما أمسكت بقطعة من القماش لتسحب فطيرة من الكانون. قسمتها إلى أربعة قطع قبل أن تضعها في الصحن الذي كان ينتظر قرب موقد الجمر. وإذ تألقت ابتسامتها من الانشراح نادت على سلمى: «هل أنت الهرّابة الصغيرة؟» أكدت سلمى ذلك بإيماءة الرأس. «تجعلين الجميع يهذرون، أما أنت فتظلين صامتة. تعالي!».

لبّت سلمى طلبها. كانت عادة ما تدير ظهرها وتمضي مهما كان مصدر السؤال. قدمت لها المرأة ربع الفطيرة الفائرة. ضربت



باليد الأخرى على تراب الفناء المطروق، بشكل خفيف ومتواتر، منادية البنت للجلوس بقربها محذرة «حذار، إنها ملتهبة». نفخت كل منهما على قطعتها قبل أن تعضعضها بحذر. هل حدث أن ذاقت سلمى هذا النوع من المتعة؟ بدا لها أنها تتناول قليلا من لذة صوت الغريبة، من أغنيتها. هناك شيء ما تدخّل لتجميل هذه الفتاة المصرة على الكتمان.

لم يكن لإيمنا أطفال. دجنت الهرابة الصغيرة، هي الساحرة الحرّة. وقد يكون العكس. أليست هي المرأة التي كانت توصد باب بيتها، تاركة القصر والملاح لهمّ الحرب لتتبع اغترابات فتاة غير مروّضة لا يمكن للخوف أن يتملكها؟ «سآخذ معي لمجة جيدة»، كان تقول إيمنا. وكان الصغير علي يراهما تمضيان بعيدا وقد اتسعت عيناه من شدّة الكبت.

حينما فرغت القرية من الأقدام السوداء واليهود، قبل أن تذهب هي الأخرى في أحد أيام الربيع من سنة ألف وتسعمائة واثنين وستين، حضنت إيمنا سلمى بين ذراعيها: «أنت وأنا لا نبكي». وكانت عيناها مليئتين بالدموع.

أين هي الآن؟

توقفت سلمى. دار إيمنا ها هنا. الأغنية الأندلسية القديمة تصاعد من مسرح الكثيب وتملأ سلمى - «عندما نبرأ من النقص العاطفي - ومن مذاق **مخلع** إيمنا الذي لم تعثر عليه أبدا».

يجب أن تطلب سلمى من زينب أن تجفف لها بعض اللحم. لم تأكل **المخلع** ثانية لأنها لم تعثر عليه. مع أنها لم تنس أية حركة من حركات إيمنا: لحم الخروف المرشوش بحبات الملح الكبيرة وبذور



الكزبرة التي تجفف ثم تطبخ في الشحم على نار معتدلة. وإذ يحفظ هكذا، يطهى بعدة طرق ويبقى على حاله لمدة طويلة.

يتطلب مخلع إيمنا حبات بصل صغيرة وطرية وبعض رؤوس الفلفل الأخضر المسبوكة في مرق الطماطم المتبل بالكمون، وبعد الاختزال، يضاف لحم مفروم مجفف، ثم يغلف الحشو بجينة شبيهة بعجينة البتزة، وتطهى الفطيرة في الكانون.

نظرت سلمى بانقباض القلب إلى الباب المغلق الذي لم يعد باب إيمنا لا يهم. إن ذكرى الأوجار المتوحشة ستخلط دائما رائحة الرمل الحار بمذاق مخلّع إيمنا وسعة غنائها: «عندما نبرأ من النقص العاطفي».

بمقدور سلمى أن تتأكد أيضا من صحة صدق تضامن ناس الصحراء وسخائهم. إذا مات أحدهم في عائلة ما فإن الجيران هم الذين يتكلفون بتحضير الوجبات الجماعية لمدة سبعة أيام. صحيح أن استقبال الضيوف الذين يجيئون من أجل التعزية وسلسلة النشيج الجاهز باستمرار يتواتر كثيرا. وبعد الأسبوع الأول تعود العائلة المعنية للمناوبة في المطبخ. المأتم هنا هو المناسبة الكبيرة للشراكة، يتجند الجميع لتمديدها أكثر. من البداهة أن الأعراس ليست إلى وجه آخر للمأتم.

تتحول قاعة الضيوف، بعد العشاء، إلى قاعة للعلاج، تنتظر بنات الأعمام والخالات سلمى بنية الصمود والمقاومة - إنها لامتلك هذه المرة أية وسيلة للإفلات منهن - بتحاليلهن، الصور الإشعاعية، مخططات القلب... أو بحصر فحسب، فزلجة الأمراض، وكنّ يكرّرن الأقوال ويعبّرن بلغة سخيفة تثير ضحكا متواصلا وعاما.



لا الضحك المتواصل الذي ينتهي بشهقات ولا الأنواع الأخرى من التنفيس تداري سلمى: هناك امرأتان شابتان لهما مشاكل قلبية، ويبدو أنهما تجهلان خطورة ذلك. عمرهما أقل من ثلاثين سنة، وتعود آخر زيارة للطبيب إلى عشرة أعوام، إن التهابات الحلق التي لا تعالج جيدا في الطفولة تؤدي إلى أمراض قلبية خطيرة. وليس للمصابين وقت ليشيخوا.

لم تنم سلمى لوحدها، هذه المرة، على أحد مقاعد حجرة الضيوف. الغرف الأخرى محجوزة أيضا. بقيت مجموعة من النسوة، الممددات على زربية مغطاة بأفرشة موضوعة جنبا إلى جنب، يتهامسن إلى ساعة متأخرة من الليل. هل ذهاب الأم هو الذي يحرّر المسكوت عنه؟ هل يعود الفضل للظلام للبوح بأسرارهن التي أخمدت همتها عينا سلمى الجافتان في وضح النهار؟ هل اختلاط الأجساد واسترخاؤها مع اقتراب النوم هو الذي ساعد على البوح؟ هل استعداداتهن كأمهات للأحاديث المسعفة، ميلهن الدائم إلى محاولة ربط ما لا يمكن ربطه، أم أن الأمر يتعلق، في غياب بديل آخر، بطريقة من الطرق التي تدفعهم إلى التكيف مع سلمى؟

يتداولن الواحدة تلو الأخرى لإعلامها وتقديم كلمات مهدئة: «لو تعلمين كم كانت أمك فخورة بك!»، «كانت مقتنعة بأنك حتى لو سكنت في كوكب المريخ، فإن دعمك لها سيظل أكيدا!» - احتفظت سلمى لنفسها بفكرة اعتقاد أمها أنها فعلا من سكان المريخ -. قالت لي في الأسبوع الماضي: «امنحيني ما يمكن أن أصلح به الثلاجة. ستأتي ابنتي بعد خمسة عشر يوما وسأعوضك وقتئذ. وفي العام القادم، في هذا التاريخ بالذات. ستدفع لي ابنتي ثمن الحج إلى



مكة». ليكن في علمك أنها صرحت لي شخصيا: «سأصبح هرابة بدوري، بعد مكة، سأعود إلى بيت ابنتي في فرنسا، ابنتي طبيبة، لا تعرف سوى العمل والقراءة والتجوّل. لا داعي خاصة لأن يطرح عليها سؤال لماذا لم تنجبي أطفالا؟» الحديث معها عن الأطفال، دون الشعور بمسؤولية، أمر لا تحبه، إنها لا تستطيع... وما على أبنائي وبناتي الآخرين إلاّ أن يهتموا بتربية أبنائهم. تعبت اليوم. أنا أيضا بحاجة إلى متنفس. وحدثت سلمى إحدى بنات أعمام الأم بشكل مفاجئ: «ماتت بسبب القلب، أن تموت بداء القلب، وأنت، ابنتها، طبيبة القلب في فرنسا!».

عقبت سلمى على هذه الملاحظة بغباوة: «ماتت بسبب القلب، نعم» قبل أن تتدارك وترد بنبرة ساخرة: «ماتت بالقلب عن قصد!» وأثناء الضحك كان هناك نخير يشهد على العناء.

خيال الأم ها هنا هو الذي سيدعم الأحياء لأجل طويل.

ليس هناك خيار آخر لسلمى لتعود إلى وهران سوى الحافلة. لن تحتمل مضايقات سيارة الأجرة المتعددة المقاعد، لا توجد سيارات للإيجار. فضلا عن ذلك فإنها لن تغامر وحدها عبر الصحراء، الهضاب العليا ومنعرجات جبال الأطلس التلّي - المعروفة بكمائنها - الطريق ليست آمنة تماما قبل وهران.

غادرت سلمى عين الدار في الرابعة صباحا. الحافلة تنطلق من بشار في الخامسة إلا ربع.

الوقت ليلا. جلست سلمى في المقعد الأول. لن تكون الحافلة ممتلئة عن آخرها، بقي المقعد الذي بجانبها شاغرا. يفضل النظر إليها من بعيد. بطريقة غير مباشرة وهي ترتدي سروال الجلد واللبدة.



هذا من حسن حظها. يمكن أن تتحرك بحرية. أشعل مساعد السائق، غداة انطلاق الحافلة، مسجلة تردد آيات قرآنية، الصوت ساحر، خيّم على الحافلة جوّ جنائزي. بدا أن الحفل الديني يجر صوت المحرك ويبسطه. من حق سلمى أن تستمع إلى هذا القرآن الذي لم تسمعه أثناء دفن أمها لأنها لم تكن هناك.

استولى عليها شعور غريب، عند الخروج من بشار، كأنها تأخذ معها جسد أمها، في موكب احتفالي ونص مقدس، من أجل صلاة الجنازة. عادت إلى ذاكرتها، في ليلة الموت السحيقة في القدم، إحدى قراءات المراهقة المثيرة: **فيما أنا أحتضر** لفوكنر.

ركزت سلمى بصرها على هالة ضوء المصباحين التي تفتح الطريق حتى تتفادى التصورات المربكة. إنها لا ترى شيئا من المنظر الطبيعي الغارق في الظلام. لكنها تعرفه عن ظهر قلب وتصرّ على تخيّله. الأراضي اللينة المتسعة والهضاب الصخرية التي لا حدّ لها سوى خط الأفق، عوارض الوديان، منخفضات أشجار النخيل والغار، ترصيعات اليشب، ميلها الزاوي في الجدب. الظهور المفاجئ لربوة شبيهة بأرق ما رفعه نوام المغرّات، فقدان المدّ.

ثم الفجر في الصحراء. الفجر في هذه المساحة المعدنية، هلوسة أحدثتها تمثلات القرآن. سجد مجموع المسافرين قبل أن يحمدوا الخالق بهدير متحمس موحد، أوقف السائق الحافلة ونزل أغلبهم لأداء صلاة الفجر.

كانت سلمى، الملحدة منذ المراهقة، تندهش لرجل يتوقف، وحيدا ليصلي أمام المد المديد للصحراء، هادئا وبسيطا، كله في أصالة الشعور الديني. وبالمقارنة، فإن الفريق الذي يلبّي الدعوة،



على بعد أمتار من الحافلة، يبدي تفاخرا مقيتا، يتراقب الحركة المسرحية. سماهم تدل على أنهم مراءون، لا يوجد شيء في لباسهم السخيف، الذي استعير جزء منه من البزة الأصولية، لا يدل على الرياء. ما عدا خمس نساء، اثنتان منهن محجبتان، وثلة من الرجال رفضوا أن يكونوا جزءا من القطيع. وإذ عادوا إلى الحافلة، صعقهم المتحمسون بنظراتهم قبل أن يديروا ظهورهم باحتقار - كما لو أنهم أرادوا تبليغهم لعنة العالم - في حين استمروا بنبرة فظة في حمد البارئ أو في طلب المغفرة. غفران ماذا؟ ولماذا؟ غفران الهمّ الذي يعيشون فيه؟ ذنب وجودهم؟ هل ارتكبوا شيئا آخر، ما عدا تشويه تدينهم المفرط إلى درجة تحويله إلى دجل؟ ومع ذلك فإن طلب الغفران من الله لم يمنع أبدا التنكر الأصولي من قتل مخلوقاته... عاد ثلاثة أو أربعة أبالسة صغار نحو الحافلة وهم يزرّرون فتحات سراويلهم. من البداهة أن هذا، بالنسبة إلى هؤلاء، يريح أكثر من الصلاة، والاختباء خلف الدغل يقدم البديل.

من المفترض أن تصل الحافلة إلى وهران في الخامسة، أما إن توقفت في كل صلاة، أو لأغراض أخرى فإنها تخشى الوصول إلى وجهتها في آخر الليل.

ثلاث ساعات من القرآن. غسل المخ وإلقامه فعلا. تشعر سلمى بالغثيان. ثم الراي بأعلى الأصوات أو الديسكو، جمال سهوب حلفاء الهضاب العليا خلف النوافذ رسم يتقابل صفاؤه مع شطط الديسيتبل، مع تبجحات بعض المسافرين وخواتم القرآن.

يخفت في نهاية الهاجرة اللون الأحمر والخبازي للهضاب العليا. يغدو التراب شاحبا وقد أصيب فجأة بحاصة، ثم تنفتح



أدغال مريبة هنا وهناك، واحسرتاه! يعرف الدنو من التل أكثر بعدد الأكياس اللدائنية التي ألقتها الرياح هنا واجتاحت المكان، وليس بكثافة الأدغال. المنطقة كلها تتسم بالمظهر القدر لمحيطات المزابل العمومية، وينزع الارتفاع المنظر الطبيعي من هذا التلوث في زحام من الانحدارات والقمم.

الطريق يتلوى ويصعد إلى اللانهاية. وفي السادسة بدأت الحافلة تلهث على أعلى شريط الأطلس عندما تعطلت المسجلة الجهنمية أخيرا، وتوقفت. انخفضت السماء تحت الجبال، اتخذت لونا حليبيا وانتشرت في منافذ الممرات الجبلية في شكل دخان يتبخر عند ملامسة الصخر.

للجمود والسكون يد واحدة، يوحيان ببهر كوني، قبل أن تظهر بغتة زوبعة ثلجية. «الأولى منذ كم من سنة؟»، تساءل المسافرون. وإذ كانوا يتكلمون عن ثلوج الأزمنة القديمة، وضعت سلمى رجليها على المقعد منهكة من هذه الرحلة الطويلة، استدارت نحو النافذة واستسلمت تتأمل الستار المبقع للندف.

ألبست الثلوج، بسحر كل صلوات الشكر، الوهاد والقمم الشعف والدنتلاّ، ورصعت الأشجار بالجواهر الأخيرة، وها السحر يؤثر في سلمى تدريجيا، عادت فرحتها لتحبط الأحابيل الأسرية، في حين كان سحر الطفولة يتبدد.



أدين بكل شيء للنسيان

رواية

«والمغرمون؟ هل من جديد؟» فكرت في السنين الأربع للوحدة القاسية التي مرّت بها. كان أصدقاؤها يتساءلون عن هذا المتخيل الجليل الذي اخترعته حتى لا تترك أيّ مجال للحب. وأي حب؟ كان هذا السؤال يفتح فجوة فيها وحولها. ثمة أمر ما يغيب عنها ولا تعرف عنه شيئا، تنتظر دون أن تنتظر، دون أن تفهم، كما في مواجهة الصحراء والبحر، كما يفقد الكاتب مادة كتابية ومعناها.

كيف ستتصرف الآن مع هذا؟ هل يمكن لحبّ أن ينقذها مرّة أخرى؟ تتذكر سلمى زوغانها لعشريات، وأيّ زوغان! بذلت كل جهدها لتجنب السنوات الأولى لحياتها. صحيح أنه كان عليها إبعاد عدد من التخوفات بسرعة كي تستطيع أن تتقدم. كانت تنتظر أن تصبح امرأة زمانها، وكانت تجهل بأنها ستتعثر في يوم ما في هذه الطرق المسدودة، وسوف لن يكون لها منفذ آخر سوى بملاحقة أبسط أحاسيس إدبارات الطفولة.

مليكة مقدم



©M. Simon



تصميم الغلاف: سامح خلف


ISBN 978-614-01-0363-4
9 786140 103634

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com